محمد سعيد رمضان البوطي

منهج الحضارة الإنسانية في القرآن

آفاق معرفة متجددة
دار الفكر
www.fikr.com

اللَّهمَّ لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وعليك التُّكلان ، وأفضل الصَّلاة والسَّلام على عبدك ونبيِّك سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأسألك اللَّهم أن تخرجني من ظلمات الوهم ، وتكرمني بنور الفهم ، وأن تفتح عليّ بمعرفة العلم ، وأن تلهمني شكر نعمك ، وتجعل عملي خالصاً لوجهك . إنَّك يا مولانا سميع مجيب .

مُقَدِّمَةُ ٱلْكِتَابِ

(١)

حديث الحضارة الإسلاميّة ، هو حديث أكثر الكتّاب والباحثين في هذا العصر ، سواء منهم المسلمون وغيرهم . فأكثر المؤلَّفات التي تظهر ، ومعظم المجلات الفكرية التي تنشر ، تحفل بأحاديث مسهبة ومكررة عن الحضارة الإسلامية ومدى أهميّتها في عصر ازدهارها الغابر .

غير أنَّ جلَّ بحوث هؤلاء الكاتبين ، إنما يتناول من الحضارة الإسلامية بياناً وصفيّاً لمنجزاتها ، وإعجاباً بمظاهرها وآثارها . فما تتوقع منها أكثر من بيان تصويري ـ ربَّما مع قدر كبير من الإطراء والإعجاب ـ لما قد ساد في عصور تلك الحضارة من المعارف والعلوم كالطِّبّ والفلسفة والعمران والصِّناعات ومختلف الفنون الجميلة ..

هذا ما تحدّثك عنه مكتبة الحضارة الإسلاميّة التي تعجُّ اليوم بعشرات المؤلَّفات الضخمة والمتوسطة والوجيزة ، والمقالات المتنوعة الكثيرة ، لكتّاب مسلمين ومستشرقين وغيرهم ، كلها يسلك في معالجة هذا الموضوع ، مسلكاً وصفيّاً أنيقاً ، يقوم في الغالب وسط إطار من مظاهر الدهشة وعبارات الإكبار والإعجاب . وربما جاء كله أو جلّه مقروناً برسوم وصور موثقة ، تزيد من مقتضيات الإعجاب بها والتَّمجيد لها .

وفي يقيني أنَّ هذه الطريقة في الحديث عن الحضارة الإسلاميّة ، من شأنها أن تثير في أذهان القرّاء مشكلات ، بل معضلات ، تصرفهم عن التَّنبُّه إلى دواعي الإكبار لتلك المظاهر الحضاريّة مهما بلغت أهميَّتها وارتفعت قيمتها . فإن القارئ ـ أي قارئ كان ـ سيجد نفسه منجذباً عن التَّأمُّل في روعة تلك الحقائق التّاريخيّة ، إلى التَّساؤل عن السِّر

الذي جعل تلك الحضارة الباسقة تدبر بعد إقبال ، وتتحجّر بعد طول نمو وازدهار !.. ولسوف تحلّ هذه المشكلة في نفسه محلّ الإكبار والإعجاب ، ما دام أنّه لا يجد على تساؤله أي جواب مقنع .

وإني لأذكر كيف أن الكاتبة الألمانية (زيغريد هونكه) ما إن نشرت كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) الذي تضمن استعراضاً جميلاً لمعظم منجزات الحضارة الإسلاميّة ، حتى انهالت عليها أسئلة القرّاء تفد إليها من كلّ صوب قائلة : فبأيّ سرّ ازدهرت تلكَ الحضارة كلّ ذلك الازدهار ، وبأي موجب عادت فذبلت كلّ هذا الذُّبول ؟

وهكذا تبدّدت جهود عظيمة أنفقتها هذه الكاتبة لإبراز سمو الحضارة الإسلامية في عصورها الغابرة ، وسط ضرام هذا التَّطلُّع الطبيعي الذي لا بدّ أن ينصرف إليه كل قارئ يتمتع بشيء من النَّظر وعمق الفكر .

أمّا ، بماذا أجابت الكاتبة الألمانية عن أسئلة هؤلاء القرّاء ، ومدى قيمة إجابتها في التعبير عن الحقيقة ، فذلك ما سيجده القارئ بتفصيل في مكانه من هذا الكتاب .

على أن من الواجب أن أُبادر فأستثني كاتباً مثل مالك بن نبي رحمه الله تعالى ، فقد سلك في بحوثه الكثيرة عن الحضارة الإسلاميّة ، مسلك النّابش عن جذورها الباحث عن صلة ما بينها وبين نفوس أصحابها ؛ إلاّ أنه اتَّجه إلى ذلك من خلال طريق طويل ، جعله يجتاز بالقارئ مراحل نظرية مجرّدة ، قبل أن تأخذ بيده لتدلّه بشكل عملي على المفتاح الضائع الذي يبحث عنه .. ذلك المفتاح الذي إن استعمله فأداره على وجهه ، تفتَّحت أمامه مدارج حضارته الإسلامية التّالدة من جديد ، وأمكنه أن يعود إلى تحقيق دوره في إشادتها ، تماماً كما قد فعل أسلافه من قبل .

وأعتقد أن مظهراً بارزاً لهذا الاضطراب ، يتجلى في البحث الإضافي الذي أضافه مالك بن نبي رحمه الله في طبعة لاحقة ، على كتابه (شروط النَّهضة) وجعل عنوانه :

(أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة) . فقد كان هذا البحث الإضافي بمثابة إجابة منه على أسئلة كثيرة وجهها إليه الشباب ، والطلبة على وجه أخصّ (على حدّ تعبيره) ، تضمّنت في مجموعها رغبة في أن يعود إلى الفصول التي ضمنها التفسير التاريخي لنشأة الحضارة الإسلامية ، بمزيد من الشرح والبيان ، بحيث يتمكّن الشاب أن يعثر من خلال ذلك على واجبه السلوكي الذي يجب أن ينخرط في القيام به ، ابتغاء النُّهوض بالمساهمة في تجديد الحضارة الإسلامية العظمى ... ولقد شكرهم مالك رحمه الله ، على تطلُّعاتهم هذه ؛ وعقد ، استجابة لرغبتهم تلك ، ذلك الفصل الإضافي في كتابه شروط النّهضة . ولكني أشكّ ، من خلال قراءتي له ، أن يكون وافياً بتطلُّعات أولئك الشباب .

(٢)

لقد كان من أثر هذه الطريقة الوصفية في الحديث عن الحضارة الإسلامية ، أن اتَّجه كثير من الباحثين المسلمين إلى دعم وتصديق ذلك الرأي الجانح الذي تبنَّاه الفيلسوف الألماني (شبنجلر) ، والذي يتلخَّص في دعوى أن للحضارات ، أيّاً كانت ، طاقة كالطّاقة العضوية التي يتمتع بها الإنسان ؛ فهي تنشأ في ضعف ، ثم تتجه إلى القوة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى الضعف فالذُّبول فالموت ؛ وأنها تتدرَّج في هذه المراحل بدافع ذاتي منها . فالبحث عن عوامل خارجية لذلك التَّدرُّج بحث في غير طائل وتفتيش عن مفقود !..

والحقيقة أن التَّمسُّك بهذا الرّأي ، يكاد يكون الملاذ الوحيد ، لمن لم تتكامل لديه معرفة شمولية لبنية هذا الكون ، فعاش وهو لا يتبصَّر شيئاً من السُّنن والقوانين الكونيّة التي يأخذ الله بها عباده طبقاً لما فطرهم عليه . إن رأياً كالذي يذهب إليه (شبنجلر) يغدو حينئذ بمثابة التَّعويض ـ على أقلّ تقدير ـ عن فوات معرفة السِّر الرَّباني ، بالنسبة لأولئك الذين فهموا الأمور على ظواهرها ، ولم يتبيَّنوا سننها وقوانينها التي

أقامها بديع السموات والأرض ، ومكوّن الفطرة الإنسانية على النحو الذي شاء أن يكونها عليه .

أما أن ينجرف في هذا الوهم المسلمون أنفسهم ، وهم الذين يملكون مفتاح هذا اللغز ، ويستطيعون أن يقدموه لمفكّري الأمم والشعوب كلها ، فذلك هو البلاء الذي لا عذر لوقوعهم فيه .

غير أن من أهم الأسباب التي يسّرت تسلل هذا الوهم إليهم ، انتشار هذا الأسلوب الخطير في الكتابة عن الحضارة الإسلامية وتاريخها ، إلا أنه مع ذلك لا يشكّل معذرة شرعيّة تسوّغ لهم الانسياق في تيار هذا الوهم الباطل الذي لا يتماسك عليه منطق ولا برهان .

فالقرآن كتاب الله وبيانه ، طبقاً لما يستيقنه كل مسلم صادق في إسلامه . وهو يتلى على مسامع المسلمين صباح مساء وفي كل مناسبة ، هذا إن لم يكونوا ممن يؤدّون واجب تلاوته بتدبُّر وتأمُّل بين كل حين وآخر . وهذا الكتاب يظلّ يكرِّر على مسامع المسلمين كلهم سبل تسخير الله الكون لعباده ، ويبيِّن لهم الطُّرق الكفيلة بجعل قيادة الدنيا في أيديهم ، كما يظلّ يعرِّفهم على المنزلقات السُّلوكيّة التي تعرِّضهم للضَّياع ، وتقصيهم عن مستوى القيادة في عمارة الأرض ؛ ثم يحذِّرهم من الاتِّجاه إليها ، ويهدِّدهم إن هم تساهلوا فانحرفوا عن الجادة بالوقوع في مغبّتها وسوء عقباها .

فأي عذر لهم في أن يحبسوا أنفسهم (تقليداً لأعدائهم) من حديث الحضارة الإسلامية في تلك البحوث الوصفيّة الميتة ؟.. ثم أي عذر لهم في أن يبحثوا عن موجبات قيام صرحهم الحضاري الأغرّ ، ثم عن أسباب انهياره وتحوُّله إلى أطلال ، فلا يجدوا أمامهم إلا آراء أمثال توينبي وشبنجلر ؟

تلك هي واحدة من مشكلات الثقافة الإسلاميّة ، التي يعاني منها واقع الفكر الإسلامي المعاصر . ومنها تكوّن أهم الدّوافع التي حملتني على كتابة هذه الفصول .

وهي قبل أن تكون فصولاً من كتاب ، كانت محاضرات موجزة ألقيتها من الذاكرة ، تباعاً ، في التّلفزيون العربي السوري ، في أمسيات شهر رمضان المبارك من عام (١٣٩٩ هـ) ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتلقّى من كثيرين ممن أصغوا إلى تلك المحاضرات ، رغبة شديدة ، في استخراجها كتاباً وافياً بمضمون هذا العنوان : « منهج الحضارة الإنسانية في القرآن » بحيث يجلّي المنهج الذي يرسمه القرآن لإنشاء حضارة إنسانية مثلى ، إذا كان يتضمّن حقّاً منهجاً متكاملاً إلى ذلك .

وأنا على يقين بأن للمشكلة التي بيّنتها في الفقرتين : الأولى والثانية من هذه المقدمة ، أثراً كبيراً في تلك الرَّغبة التي تلقّيتها من الإخوة المستمعين ، كما أن هذه المشكلة ذاتها ، تشكّل العامل الأكبر في انصياعي لرغبة هؤلاء الإخوة ، والعكوف على تأليف هذا الكتاب الذي فرغت من كتابة آخر فصوله ، بحمد الله وتوفيقه ، منذ بضعة أسابيع .

ولست أزعم أن استخراج منهج متكامل للحضارة الإنسانية المثلى ، من كتاب الله عزّ وجلّ ، يتطلّب جهداً كبيراً ، ودأباً متواصلاً ؛ بل الأمر بلا ريب أهون من ذلك . فأصول هذا المنهج ومراحله معروضة بشكل واضح في هذا الكتاب العظيم ، وبوسع من شاء ، من المقبلين عليه تلاوةً وتدبُّراً ، أن يتبيَّنها ويتفهَّمها على أحسن وجه .

ولكني لا أعلم أن هذا المنهج المتكامل ، قد تمَّ إفراغه قبل اليوم ، في أي كتاب أو بحث علمي جامع . وإنما تناول الكاتبون ـ في أرقى ما انتهت إليه معالجتهم لهذا الموضوع ـ علاجات جزئية متناثرة ، للتَّخلص من بلاء التَّخلف ، والصعود مرة أخرى في مدارج الحضارة الإنسانيّة والإسلاميّة المنشودة . والعلاجات الجزئيّة لا تفيد (على

فرض صحّتها) إلا إذا جاءت متساوقة متآلفة ، بحيث يتكوّن منها منهاج علاجي جامع . وهو ما قد رسمه لنا كتاب الله عزّ وجلّ .

(٤)

ثم إن من المهمّ أن نعلم أن جذور الحضارة الإنسانية المثلى ، هي دائماً وفي الوقت ذاته ، جذور للتربية الإنسانية المثلى . إذ الحضارة الإنسانية ليست أكثر من ثمار لجهود التعاون الإنساني ، في نطاق الاستفادة من ذخر الأرض وخيرها ؛ وإنما تتمثل أصول هذا الجهد في منهج تربوي متكامل ، يؤخذ به الإنسان بوصفه فرداً مستقلاً ، وعضواً في جماعة .

وإذا كان القرآن قد وضع بين أيدينا منهجاً متكاملاً لإنشاء هذه الحضارة المثلى ، فمعنى ذلك أنه قد وضع بين أيدينا منهجاً متكاملاً في الوقت ذاته لأصول التربية الإنسانيّة ، وبتعبير أكثر حداثة : إنه قد وضع بين أيدينا نظرية متكاملة للتربية الإنسانية المثلى .

أقول هذا الكلام ، لألفِتَ من خلاله ، نظر أولئك الذين يزعمون أنهم بحثوا ، فلم يعثروا على أصول متكاملة تصلح أن يتكون منها منهج تربوي إسلامي كامل ، أو نظرية كاملة للتربية الإسلامية ، تنبع من منظور كل من الكتاب والسُّنّة ـ: لألفِتَ نظرهم إلى أن هذا المنهج التَّربوي المتكامل موجود . على أن وجوده ليس كما قد يُظن ، أشبه بوجود التِّبر الخفي وسط التّراب الأغبر ، فهو يحتاج إلى جهود خاصة ودراية فنية للعثور عليه ، ثم استخراجه وتجليته أمام الأنظار . لا .. بل هو وجود مكشوف يعلن عن نفسه في صفحات هذا الكتاب الرَّبّاني المعجز . وبوسع كل من يلتفت إليه بما لا يزيد على التَّدبُّر المعقول ، أن يراه أصولاً تربويّة متماسكة متكاملة ماثلة أمامه .

ولكن بلاءنا بهؤلاء الذين يقولون : بحثنا ، فلم نعثر ، أنهم لم يبحثوا قط ، ثم

يظلّون يكرّرون مع ذلك هذه الدعوى في كل مناسبة !.. وكيف نصدق أنهم بحثوا ، وإنّ أحدهم لم يمرّ على كتاب الله تعالى ، قراءةً مستوعبةً له ، مرةً واحدةً في حياته بعد !.. بل إني لا أشكّ أنَّ فيهم من لا يعرف من القرآن الذي ينتمي إليه ، أكثر مما يعرف عن التّوراة والإنجيل ، ولم يعلق بذهنه من آيات ذلك الكتاب ، أكثر مما حفظه من مقاطع هذين الكتابين !..

وهو لو أراد أن يعود إليه بشيء من التَّأمل الجادّ ، لفاجأته فجوة ثقافية مؤسفة ، تجعله لا يقيم لسانه على نطق سليم به ، فضلاً عن أن يملك دراية تعينه على فهم مضمونه وتذوّق معانيه ، ذلك لأنه لم يعرّج من خلال رحلته الثقافية التي اجتازها ، طوال عمره الذي مضى ، على بذل أي جهد دراسي للتَّعرف على حقيقة هذا الكتاب الرَّبّاني أو التَّمرُّس الصحيح بتلاوته .

ثم إنَّه يصرُّ مع هذا كله ، على القول ، بأنه فتَّش فلم يعثر على شيء ، مما يمكن أن يسمّى أصول نظرية تربوية متكاملة في كتاب الله عزّ وجلّ !.. فأنا أقول لهؤلاء الناس (وأظن أن فيهم صادقين في رغبة العثور على منهاج تربوي إنساني متكامل في كتاب الله عزّ وجلّ) : بوسعكم أن تعثروا على هذا المنهج الذي تفتشون عنه ، في فصول هذا البحث الذي أضعه بين أيدي القرّاء ، إن أنتم أقبلتم عليه بدراسة واعية مستوعبة .

فإذا فعلتم ذلك ، وعثرتم على هذا الذي تبحثون عنه ، فقد آن لكم إذن أن تعودوا إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، وتشمّروا عن ساعد الجدّ ، لتبدؤوا رحلة ثقافية جديدة ابتغاء التَّعرُّف على حقيقته ومضمونه ، ثم ابتغاء إتقان تلاوته وفهمه ، ثم النُّهوض الجادّ بالمسؤوليات الخطيرة التي يحملكم إياها صاحب هذا الكتاب العظيم ، التزاماً بأحكامه ، وترسّماً لمنهجه ، وسعياً إلى القيام بدورنا الحضاري الذي شرّفنا به ، فقام به أسلافنا على الوجه المطلوب ، وأعرضنا نحن عنه أسوأ إعراض .

ترى متى يتحقَّق جلّ المسلمين بهذا الأمر ؟.. ومتى يدركون أن ثقافاتهم المختلفة ،

لا قيمة لها في نطاق البحث عن الذات وترسيخ الأصالة المنشودة ، إن لم تنهض أولاً وتتوَّج أخيراً على دراية هادئة جادّة بكتاب ربِّهم الذي يعَلِّمهم كيف يعيشون ، وكيف يتعاملون مع المكونات والإنسان والحياة ؟

سؤال ، ربما كشف عن الإجابة الصحيحة عليه غدٌ مقبل .. وإنَّ غداً لناظره قريب .

محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق : ٢٠ جمادى الأولى ١٤٠١ هـ
٢٥ آذار ١٩٨١ م .

تمهيد

الحضارة وعناصرها

☆

كيف يجعل القرآن الإنسان مسؤوليات بناء الحضارة

☆

كيف يبصر القرآن الإنسان بعناصر الحضارة ويدله على سبيل التعاون معها

الحضارة وعناصرها

لا أرى حاجة إلى الإطالة في تعريف الحضارة على نحو ما يصنع كثير من الكاتبين ؛ على أني لم أقف إلى الآن على تعريف علمي دقيق لها ، على الرَّغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها .

وخير للقارئ من هذه الإطالة ، أن أضعه من حديث الحضارة وموضوعها أمام النقطتين التاليتين :

النقطة الأولى : أنَّ مدار الحضارة (مهما تشقق أو اختلف الحديث عنها) على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها ، إلى حياة العمران وتعقيداتها . وإنما تعني كلمة (الحضر) في اللغة ما يقابل المعنى الذي يراد بكلمة (البداوة) ، من حيث المدلول الذاتي لكلٍّ منهما وما قد يتبعه من مستلزمات . فالعلاقة بين المعنى اللغوي والقصد الاصطلاحي لكلمة الحضارة واضحة جلية .

ثم إن الحضارة تزداد اتِّساعاً وعمقاً ، كلما ازدادت بأصحابها بُعداً عن طبيعة البداوة ومستلزماتها ، وإيغالاً في المجتمع العمراني ، وتفاعلاً مع آثاره ونتائجه .

النقطة الثانية : أن الحضارة يمكن أن تعرّف انطلاقاً من هذا الأساس ، بأنها : ثمرة التَّفاعل بين الإنسان والكون والحياة[1] .

---

(١) لا يعنيني في هذا المقام أن أعقد أي مقارنة ، بين هذا التعريف ، وتعريفات أخرى للحضارة اعتمدها بعض الكاتبين . ففي ظنّي أن الألفاظ والتعابير مهما اختلفت فلا بدَّ أن يكون المعنى المراد واحداً أو متقارباً . ولكني أعجب للتعريف الذي اعتمده الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمه الله للحضارة في كتابه (الحضارة الإسلامية أُسسها ومبادئها) . فقد اتَّجه في تعريفها اتِّجاهاً غريباً لعلّه تفرَّد به . إذ اعتبر الحضارة مجموعة المبادئ والعقائد والأفكار والأصول التَّربوية التي تثمر لوناً ما من ألوان الحياة

ولا ريب أن أدنى مستويات هذا التّفاعل ، يتمثّل في الجهد الذي يبذله أهل بادية ما ، من أجل تحصين مجتمعهم السائب في قوالب من التخطيط العمراني . وبدهي أن هذا الجهد لا بد أن يعتمد على استغلال العمر ، الذي نعبّر عنه هاهنا بالحياة ، في تسخير مظاهر المكوّنات المختلفة ، المحيطة بنا ، لسعادة الإنسان ورفاهيته .

فالحضارة إذن ، ليست أكثر من ثمرات الجهد الذي يبذله الإنسان ، لاستغلال المكوّنات التي من حوله ، في سبيل تحقيق مقوّمات المجتمع الإنساني ، وبثّ أسباب الخير والسعادة فيه .

وإذن ، فعناصر الحضارة ، أو أركانها الأساسية ، إنما تتمثّل في هذه الكلّيات الثلاثة : الإنسان . الحياة . الكون .

وإنما مركز الثّقل من القصد بالإنسان ، أو الكيان الإنساني ، في هذا المقام عقله وتفكيره ووجدانه .

أما الحياة ، فنقصد بها ، كما قلنا ، العمر الذي يتمتع به الإنسان . ولعل التعبير به أو بالحياة ، أدقّ في الدّلالة على المعنى المطلوب من كلمة (الزمن) . إذ (الزمن) يدلّ على معنى قائم ومستقلّ بذاته ، دون أن يؤخذ بعين الاعتبار أي صلة له بالإنسان ، وإنما المراد هنا ذلك البعد الزّمني الذي تنبسط على مساحته كينونة الإنسان وبقاؤه متمتّعاً بحياته وفكره . وإنما يعبّر عنه بالحياة أو العمر .

ونقصد بالكون المكونات المتنوعة المختلفة ، الخاضعة لتسخير الإنسان . وهو التعبير العلمي الذي تفرضه علينا الدّقة المطلوبة في الرّبط بين الألفاظ ومدلولاتها ، بدلاً من

= الاجتماعية بمقوّماتها المختلفة . فالحضارة على هذا صفة للناس والجماعات ، وليست صبغة تبقى على الأرض !.. والحضارة على هذا تزول بزوال الناس المتّصفين بها ، مهما بقيت لها وراءهم من آثار !.. ونحن لا نرى هذا التعريف معتمداً على شيء من المصطلحات والقواعد الاجتماعية المتفق عليها . ولا نرى المبادئ والعقائد والأفكار إلا أسساً ومنطلقات لتكوينها .

تلك الكلمة العمياء التي لا يستبين لها أي حجم علمي يمكن أن يعتمد عليه ، وهي (الطبيعة) . كما أن التعبير بكلمة (التراب) لا يقوم هو الآخر مقام الكون أو المكوّنات بحال ؛ إلاّ أن تكون من قبيل إطلاق الجزء على الكل (وبتعبير أدق : من إطلاق الجزئي على الكلّي) . وما أغنانا عن مثل هذه الإطلاقات والتأويلات في نطاق التعاريف والحدود [1] ، ومن الواضح أن الإنسان أهمّ هذه العناصر الثلاثة وأخطرها . إذ هو العنصر الفعال والمؤثر . أما العنصران الآخران ، وهما الكون والحياة ، فمنفعلان ومتأثران . وهذا يعني أن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة الدنيا . وذلك بما قد أوتي من نعمة الفكر والبصيرة . أما كل ما عداه مما يراه من حوله ، فأسباب ميسرة نثرت له على قارعة الطريق ، ليراها فيهتدي إلى عظيم جدواها ، ويستخدمها في بلوغ أمانيّه وغاياته .

فإذا انتهينا من بيان معنى الحضارة والكشف عن عناصرها ، فإنَّ من اليسير علينا أن نتبيَّن الحقيقة التالية :

ليس ثمة أي لزوم بين الحضارة من حيث هي ، وما قد تستهدفه أو يتوقع منها ، من مبادئ الحق والخير للإنسان ؛ فقد تهتدي حضارة ما إلى سبيل هذه المبادئ فتحققها ، وقد لا تهتدي إليها فتتنكّب عنها . إذ هي ليست أكثر من ثمرة الجهود المبذولة من قِبَل الفكر الإنساني ، للاستفادة من هذه الأجهزة الكونية المتناثرة حولنا . أمّا هل يوفق أصحاب هذه الجهود إلى استعمال هذه الأجهزة على وجه مفيد للإنسانية عموماً ، وهل من الممكن أن يتورّطوا في استعمالها على وجه غير مفيد ، وهل تتدخّل احتمالات الجواب على هذا السؤال في تحديد معنى الحضارة ، أو وضع شروط معينة لاستحقاقها هذا الاسم بجدارة ـ فهذا ما لا شأن لمدلول كلمة (الحضارة) به .

---

(١) يؤثر المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله ، في كتبه عند الحديث عن الحضارة وعناصرها ، التعبير عن العمر بالزمن ، وعن الكون بالتراب . ونستبعد أن يكون مقصوده بالتراب الأرض وحدها ، وإن تجلّى ذلك (وهو أمر غريب) في كتابه : شروط النهضة ..!!

إذ ربّ حضارة عصفت بسعادة أمّة بأسرها ، وبدّدت مقوّمات أمنها ورخائها ؛ وربّ حضارة رفعت أمّة من الناس إلى أعلى درجات السعادة والرّخاء . مع توفر القاسم المشترك بينهما ، وهو أن كلاً منهما كان ثمرة لتفاعل الإنسان مع الكون والحياة ، بقطع النظر عن تلك الثمرة ، وآثارها ضارّة كانت أو نافعة .

ولعلك تعجب من أن يقال : حضارة ولم تأتِ إلاّ بشرّ !.. ولعلك تقول : وهل يثمر العلم بالكون وسبل الاستفادة منه إلاّ خيراً للإنسانية جمعاء ؟..

فالجواب : أن البلاء الذي تحمله الحضارة للناس ، مردّه إلى أحد سببين :

السبب الأول : رعونات النفس الإنسانية وأهواؤها . فإن من شأنها ـ إذا تركت على سجيتها ـ أن تحمل أصحابها على بسط أسباب الظلم والطغيان ، وإيقاد نيران الشرور والفتن على وجه الأرض . وإنما تصبح الإمكانات العلمية والقدرات البشرية عندئذ ، أسلحة في يد أصحابها ، لإيقاد مزيد من تلك النيران .

السبب الثاني : أنّ الناس كانوا ، ولا يزالون ، يبحثون عن حقيقة كل من الخير والشّر ، دون أن يعثروا عليهما . فقد ضلّوا عنهما بسبب وقوعهم في متاهات من المواضعات والأعراف النّسبية ، وبسبب عدم اتّفاقهم على مقاييس ثابتة لمعنى كل من الخير والشّر . فكان من آثار ذلك أن أصبحت الجهود الحضارية تجارب اجتهادية متناقضة في أكثر الأحيان ، في نطاق السّعي إلى ما يظن أنه الخير والسعادة للإنسان .

ومن خلال هذين السببين يبرز ما نسمّيه بمشكلات الحضارة ، في تاريخ الحياة الإنسانية . ويتجلّى السّرّ الخفيّ ، في أن المجتمع الإنساني شقيّ (في كثير من الأحقاب) بمساعيه الحضارية وجهوده العلمية ، أكثر من أن يسعد بها .

وتلك هي المشكلة التي لا سبيل إلى حلّها إلاّ بالإصغاء إلى إرشادات خالق هذه العناصر الثلاثة : الكون ، والإنسان ، والحياة . بل هي المظهر الأول لحاجة الإنسان إلى الخضوع للدين الحق ، والانصياع للتعاليم اليقينية الثابتة المنزلة إليه من ربّ العالمين .

ومن هنا ، ونظراً لهذه الحاجة ، رسم القرآن للإنسان منهج الحضارة الإنسانية المثلى ، ودلّه على أقرب الطُّرق إلى تسخير الحياة والكون في سبيل تحقيق السعادة الإنسانية ، بأدقّ معانيها صافية عن عكر الشوائب ومنغصات الآفات .

فكيف يرسم القرآن لنا منهج الحضارة ، ويحذّرنا خلال ذلك من الوقوع في مغبّاتها وآفاتها ؟

هذا ما سنبدأ الحديث عنه في الفصول الآتية إن شاء الله .

كَيْفَ يُحَمِّلُ الْقُرْآنُ الْإِنْسَانَ مَسْؤُولِيَّاتِ بِنَاءِ الْحَضَارَةِ

رُبَّ سائل يقول :

وما شأن القرآن بالحضارة ومشكلاتها ومذاهبها ، وإنما هو كتاب دين وعبادة ، يذكر الناس بعباداتهم وواجباتهم تجاه ربِّهم !..

والجواب : أن القرآن لم يكن كتاب دين وعبادة ، إلا من حيث إنه يحمِّل الناس جميعاً مسؤولية بناء حضارة .

وبيان ذلك ، أن محور الدين الذي ألزم الله به عباده ، بما فيه من نُسُك وعبادات ، إنما هو تزكية النفس البشرية ، وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران والأوضار . ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى : ١٤/٨٧] ، وقوله خطاباً لموسى عليه الصلاة والسلام ، وقد أرسله إلى فرعون : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إلى أنْ تَزَكَّى ☆ وأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النّازعات : ١٨/٧٩ـ١٩] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ومَنْ تَزَكَّى فَإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وإلى اللهِ الْمَصيرُ ﴾ [فاطر : ١٨/٣٥] .

وليست تزكية النفس بدورها ، إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجدّ ، كما سنجد في الفصول التالية . فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو من كدورات الأهواء والرعونات ، يُخلص صاحبها في تحمّل كل ما يجب أن يتحمَّله في سبيل بني جنسه من المهامّ والواجبات المختلفة . وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها ، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض ، ولإهلاك الحرث والنَّسل ، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية ، مهما تحلَّى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة .

وإذن ، فالوظيفة التي يحمِّلها القرآن للإنسان في الحقيقة ، إنما هي عمارة الأرض ،

بمعناها الشامل العام . وهي تشمل ، فيما تشمل ، إقامة مجتمع إنساني سليم ، وإشادة حضارة إنسانية شاملة ، ليكون الإنسان بذلك مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض ، ولكن لا بالقسر والإجبار ، بل بالتعليم والاختيار .

وينصّ القرآن في أكثر من موطن على هذه الوظيفة التي حُمِّلها الإنسان . فهو يقول : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] . أي كلّفكم بعمارتها . ويقول : ﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠/٢] أي خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي . وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه [١] ، ويقول أيضاً :

﴿ ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥/٢٨] ، ويقول :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُم وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النُّور : ٥٥/٢٤] .

فهذه الآيات ـ ومثلها في القرآن كثير ـ تنطوي على تعريف صريح بالمهمة الأساسية التي كُلِّف الإنسان في حياته الدنيوية هذه أن ينهض بها ، ألا وهي تحقيق جامعة إنسانية فعّالة ، في سبيل النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي العمارة الكلّية الشاملة لكل ما تتسع له كلمة (العمارة) من المعاني الماديّة والعلمية والاقتصادية . ومن هنا شرَّف الله الإنسان الذي قبل النهوض بهذه المهمة على الوجه الذي رسمه الله تعالى له بلقب (الخليفة) ، وأعطاه صفة (الإمامة) وخلع عليه خلعة التكريم .

ولكن لما كان نهوض الإنسان بهذه المهمة ، متوقّفاً على تسامي نفسه فوق ذاتها ، وعلى تخلصها من عكر الآفات الأخلاقية ، وسموم الكبر والأنانية ، رسم الله لهذا المخلوق سبيل رياضة نفسية ، ودورات تربوية تتكفّل ـ إن هو أخذ نفسه بها ـ بتصفية نفسه

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧٠/١ .

من تلك الشوائب كلها ، وتهيئه للنهوض بواجبه المقدس على أحسن وجه . وإنما تمثَّلت تلك السُّبل التربوية والرياضية بما قد ألزمه الله به من المبادئ الاعتقادية ، وسلَّكه فيه من أنواع النُّسك والعبادات التهذيبية ، والفضائل الأخلاقية .

وهكذا يتبيَّن لك ، أن مدار الإسلام (وهو دين الله المطلق لهذه الخليقة الإنسانية منذ نشأتها) على النهوض بعمارة الأرض على خير وجه . وإنما شرع الله فيه ما شرع من جزئيات الأحكام السلوكية أو الإلزامات الاعتقادية ، تيسيراً للنهوض بهذا الواجب المقدس على النحو الذي أمر به الله عزّ وجلّ .

ومن أبرز الدلائل على ذلك ، الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى : أن جميع الأحكام الإسلامية ، على اختلافها ، تؤول إلى قسمين : قسم يراعى فيه النهوض بحقوق الله عزّ وجلّ ، وقسم آخر يراعى فيه النهوض بحقوق العباد . وإذا قارنت بينهما ، رأيت أن القسم الأول ضئيل جداً في كميته ، بالنسبة لمحتويات القسم الثاني . فجلّ الأحكام الشرعية ، يتناول رسم حقوق العباد ، وبيان كيفية رعايتها ، وسبل ضمانها . وبوسعك أن تتبيَّن هذه الحقيقة لدى الرجوع إلى فهرس أي كتاب فقهي يحوي سائر بحوث الفقه الإسلامي ، بتفصيل أو اختصار .

الحقيقة الثانية : أن من القواعد الفقهية المتَّفق عليها والمسلَّم بها ، قولهم : حقوق الله مبنيّة على المسامحة ، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة . أي إن إهمال شيء من حقوق الله تعالى أو تضييعها ، قد يجبره ويكفِّره مجرد توبة صادقة ، تتضمن عزماً على عدم الرجوع إلى ذلك الإهمال أو الجنوح مرة أخرى . فإن هو مات عقب ذلك ، آل إلى الله بصحيفة ناصعة بيضاء ، مهما سوَّدتها المعاصي من قبل توبته . أما تضييع شيء من حقوق العباد ـ سواء المعنوية منها والمادِّيّة ـ فلا تجبره التوبة بحال ، وإنما تجبره معها إعادة الحق المضيَّع إلى صاحبه . فإن هو مات ، قبل أن يردّ إلى أصحاب الحقوق

حقوقهم ، أو يستسمِحَهم فيسامحوه ، لم تغنِ عنه توبته من الله شيئاً ، وبقي مثقلاً تحت أوزاره تلك إلى ما شاء الله .

ومعنى هذه القاعدة أن الله لم يحمِّل عباده شيئاً من الأحكام التي سمِّيت بحقوق الله كالصوم والصلاة والحج والأذكار ونحوها ، إلا لتتزكّى بها نفس المؤمن ـ كما أوضحنا ـ فيتيسر له بذلك سبيل الرعاية المثلى لحقوق العباد .

ويتبيَّن لك من هذا ، أن من ضيَّع حقوق العباد ، ثم وقف متبتِّلاً خاشعاً ، يمارس حقَّ الله من حج وصوم وصلاة ، فقد ناقض الحكمة التي أقام الله شرعته عليها ؛ وكذَّب على الله وعلى الناس ، فيما أسبغه على مظهره من سيما الخشوع والتَّنسُّك . إذ لو كان صادقاً مخلصاً في ذلك ، لتزكَّت نفسه ، فما استساغت هدر شيء من حقوق الناس . وكيف يستسيغ ذلك ، وهو يعلم أن الله ما شرع شيئاً من العبادات التي أمر بها ؛ إلا إيقاظاً للرقابة الإلهية في كيان الإنسان ، كي تحجزه عن مطارح الظلم والأذية للآخرين !..

وما هي حقوق الناس في شرع الله عزّ وجلّ ؟

إنها تتمثَّل في سائر السُّبل والتَّصرفات والمنح التي من شأنها أن تكون عوناً لهم في تحقيق سعادتهم الفردية والاجتماعية ، ضمن نسق من التعاون والتكافل والعدل . وهل الحضارة الإنسانية إلا ثمرة مباشرة لهذه الأسباب والمقومات ؟

الحقيقة الثالثة : أن ما يقارب ثلثي أحكام الشريعة الإسلامية ـ بعد استثناء العبادات ـ إنما يناط تنفيذه بجهاز الحكم في المجتمع الإسلامي ، سواء تمثل ذلك في سلطة الحاكم الأعلى ، كأحكام الإمامة (وهو ما يسمى بأحكام السياسة الشرعية) أو تمثل في سلطة القضاء وهو سائر ما يسمى بالأحكام القضائية . بحيث إذا لم تقم سلطة حكم متكاملة ، على النحو المطلوب ، بقيت هذه الأحكام كلها معلّقة لا مجال لتنفيذها ولا للبتِّ فيها .

لذلك كانت مباحث الحكم والخلافة والإمامة الكبرى والبيعة ، وما يتبعها من المسائل والذُّيول ، من أبرز ما يستأثر باهتمام الشريعة الإسلامية ؛ لأنها المفتاح الذي لا بدَّ منه إلى تنفيذ أكثر الأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده .

فلماذا اقتضت الضرورة توسيط جهاز الحكم لتنفيذ هذه الأحكام ورعايتها ؟.. وهلاّ حمَّل الله عزّ وجلّ مسؤولية تنفيذها والنهوض بها للأفراد الذين تعلَّقت بهم تلك الأحكام مباشرة ؟

إنَّ الذي اقتضى ذلك ، أن معظم أحكام الشريعة الإسلامية ، إنما يتجه إلى إقامة المجتمع الإنساني ، بكل ما يحتاج إليه من أصول التعاون والتكافل وتنسيق العلاقات والجهود . ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق رقابة جهاز للحكم ، يخوَّل سلطة حماية ، وبسطة نفوذ ، ويمنح من قبل الشارع حقّ السمع والطاعة ، وهو ما شرعه الله عزّ وجلّ ونصَّ عليه بصريح تبيانه إذ قال : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم ﴾[1] [النّساء : ٥٩/٤] .

وأنت خبير أن الشريعة الإسلامية ، لو لم تكن تسعى بالإنسان ـ في جلّ ما تهدف إليه ـ إلى إقامة صرح باسق للمجتمع الإنساني ، قائم على أصلب دعائم العلم ، وأدقّ أُسس الحضارة ، لما حفلت بشيء من مسائل الحكم ونظامه ، ولتركت الناس مع منثورات الأحكام الفردية ، يعكف كل منهم على رعايتها وينصرف إلى تنفيذها ، فيما بينه وبين نفسه[2] .

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بأولي الأمر في الآية علماء المسلمين ، وعزا ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما . ولكن حتى لو أخذنا بهذا التفسير ، فهي تظلّ دالّة على وجوب إطاعة أولي الأمر من المسلمين . ذلك لأن من شروط الخليفة أو الإمام الأعلى في المسلمين أن يكون قد بلغ من العلم درجة الاجتهاد أو داناها . فقد وجبت طاعته إذن على كل حال ، إن لم يكن لأنه ولي أمر المسلمين ، فلأنه من علمائهم .

(٢) اقرأ تفصيل هذا البحث في فصل (نظام الحكم في المجتمع الإسلامي) من كتاب على طريق العودة إلى الإسلام للمؤلف .

إذن ، فقد انتهينا إلى أن القرآن إنما جاء ليحمِّل الإنسان مسؤولية بناء حضارة مثلى ، وأنه ما كان كتاب دين وعبادة ونسك ، إلاّ من حيث إنه مصدر حضارة وباعث نهضة . وإنما يأمر القرآن الناس أن يدينوا لتعليماته في تحقيق هذه الأهداف كلها . والدين إذن ليس كما يتصور الجهلة من الناس ، مجرد صوم وحج وصلاة .. بل هو الدّينونة لكل ما رسم الله لعباده ، من مناهج العلم والاجتماع والسلوك . ألم تسمع قول رسول الله ﷺ فيما صحّ عنه : « الإسلام بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

☆ ☆ ☆

ولكن هذا الأمر الذي تمَّ إيضاحه ، يثير النظر في سؤال يتطارحه بعض الناس ، وهو : هل الدين جاء من أجل الدنيا ، أم الدنيا قامت من أجل الدين ؟..

ولدى النظرة العجلى إلى هذا الذي أوضحناه ، من أن الإسلام إنما جاء ليحمِّل الإنسان مسؤولية بناء الحضارة ، والنهوض بعمارة هذه الأرض ، يمكن أن يبادر أحدنا فيقول في الجواب : بل الدين جاء من أجل الدنيا ورعايتها !..

ثم لا يعجزه أن يبرهن على صدق هذا الجواب بقوله : هل المجتمع الإنساني الذي ينهض على حضارة باسقة مثلى ، إلا مظهراً نموذجيّاً للدنيا ، بكل ما فيها من مغريات العيش والسعادة والرخاء ؟ وإذا صحَّ أن الإسلام بكل مبادئه الاعتقادية وأحكامه السلوكية وعباداته المختلفة ، إنما جاء لتمكين الإنسان من تحقيق هدفه المنشود ، وهو بناء صرح هذا المجتمع على وجه صحيح ومفيد ، فقد صحَّ لنا أن نقول بحق : إنما جاء الدين من أجل الدنيا وليس العكس .

نعم ، هكذا تقول النظرة العجلى .

ولكن فلنتأنَّ قليلاً ، ولننصت إلى ما يقوله القرآن نفسه في الإجابة على هذا

السؤال يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اسْتَجيبُوا للهِ وللرَّسول إذا دَعاكُم لِما يُحْييكُمْ .. ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] ، ويقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أو أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً .. ﴾ [النّحل : ٩٧/١٦] .

ولكنه يقول في الوقت ذاته : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ [القصص : ٧٧/٢٨] ، ويقول : ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢/٦] .

فقد أوضح البيان الإلهي في الآيتين الأوليين ، أنَّ من شاء أن يحرز لنفسه الحياة السعيدة الطَّيبة ، فليجعل من الاستجابة لله ولرسوله في تنفيذ أوامره عزّ وجلّ ، ضمانة وسبيلاً إلى ذلك . وهذا ما قد يجعلنا نتصور أن الدين جاء خادماً لأمر الدنيا .

إلاّ أنه عاد فأمرنا أن نجعل حياتنا كلها ـ بكل ما فيها من نصب ورغد ـ لوجه الله وحده ، بأن نسخرها في سبيل مرضاته ، ونبتغي بها الدَّار الآخرة دون سواها .

وإذن ، فالجواب على هذا السؤال مستخلص من كلا هذين البيانين الإلهيين . وهو : أن الدين في الوقت الذي جاء ضمانة لإصلاح شأن الدنيا والنهوض برعايتها ، ينبه الناس إلى أنهم ليسوا إلا عبيداً مملوكين لله عزّ وجلّ . فواجبهم أن يبتغوا بكل نعمة متَّعهم الله بها بلوغ مرضاته .

ويتمثَّل السَّعي إلى مرضاة الله عزّ وجلّ في درجات ، أدناها تسخير هذه الدنيا العاجلة الفانية . للدار الآخرة وما فيها من سعادة كاملة باقية ؛ وذلك طبقاً لما قد أخبر الله عنه وأمر به . وأعلاها أن يفيض قلبك إجلالاً لربوبية الله وعظيم سلطانه ، مع شعورك بذلّ عبوديّتك وضآلة ذاتك ، فتخصّه وحده بكلّ سعيك وآمالك ، ولا تشرك به شيئاً من تعلُّق بجنّة أو رهبة من نار . وأدنى مستويات هذه الدرجة العليا أن

تستيقن من نفسك الثبات على تنفيذ أوامر الله والابتعاد عن نواهيه ، حتى لوأعدمت مادة المثوبة والعقاب وانتفت الجنة والنّار[1] .

ويترتّب على هذا أن من اتّكأ على الدين واستعان به ، لتزداد قدمه رسوخاً في الدنيا ، وليزداد تمكّناً من نعيمها وأهوائها ، فقد سعى بذلك إلى المكر بالله عزّ وجلّ ؛ وحاشاه أن يُمْكَر به . وإنما شأنه في ذلك ، كشأن كثير من الغربيين الذين آثروا التّحلّي بالدين والدعوة إليه ، تَذرُّعاً به إلى تحقيق المزيد من أحلامهم الدنيوية وآمالهم الاجتماعية . ولذلك لم يبالوا أن يكون دينهم الذي تعارفوا عليه متناقضاً مع العقل والمنطق والعلم[2] ، كما يترتب عليه أن من فصل الدين عن الدنيا ، ومضى لينفذ أوامر الله ـ فيما يزعم ـ في كهوف قاصية ، لا يتعرف على شيء من المسؤوليات الاجتماعية ، والخدمات الإنسانية ، وسبل عمارة الأرض ، فقد عصى الله فيما قد ألزمه وشرَّفه به من مهامّ الخلافة في الأرض والأمر بعمارتها وإقامة شرعة الله عزّ وجلّ في جنباتها .

على أن من أعاجيب العلاقة التي أقامها الله بين الدين والدنيا ، أن من لم يخلص دينه لله عزّ وجلّ ، ولم يجعله في المرتبة الأولى من قصده وهواه ، لا يستطيع أن يخلص في خدمة أمّته ، ولا أن يَصْدُق في تحقيق مصالحها الدنيوية العاجلة . بل لا بدَّ أن تكون خدمته استغلالاً ، وهدفه أثرة ، وهواه تبعاً لأنانيَّته ؛ ثم إنه يأكل ولا يشبع ، ويطمع دون أن يقنع .

---

(١) يجب أن تعلم أن بلوغ هذه الرُّتبة ، لا تستلزم عزوف صاحبها عن الجنة التي وعد الله بها ، كما لا يستلزم عدم الاستعاذة من النار التي خوَّف عباده منها . بل من كمال عبودية المسلم إذا بلغ هذا المقام ، أن يسأل الله جنَّته ويلحّ في المسألة ، وأن يستعيذ من ناره ويكثر الاستعاذة . غير أن هذا شيء والقصد الذي ينصرف إليه صاحب هذا المقام في عبادته شيء آخر . فكلما تجرَّد القصد في العبادة عن الأغيار ، واتّجه إلى ذات الله وحده ، لمجرد أنه ربّ يستحق العبادة ، كان ذلك أسمى في باب التوحيد والعبادة والإيمان .

(٢) من أئمة هذا المذهب : هيوم ، وكانت ، وجان جاك روسو ، ووليم جيمس ، وغيرهم .

فإذا كان أفراد الأمّة كلها (أو أكثر أفرادها) على هذه الشاكلة ، فلا بدَّ أن تنمحي مما بينهم الثقة ، وتنتشر فيهم الظّنّة ، ثم تتصادم الأهواء والمصالح ، ثم تقوم بينهم ، من جراء ذلك ، الخصومات والأحقاد ، ثم يتحول الخصام إلى تهارج وقتال . وبذلك تتمزَّق الأمة وتذهب ريحها .

وهذا ما سنجلّيه ، إن شاء الله ، في الفصول التالية . وهو لبّ موضوعنا الذي نحن بصدده . وما خطط الله المنهج السليم إلى الحضارة ، إلا صوناً للناس عن الوقوع في هذه الهوة السحيقة !.. وما أكثر ما ابتلعت هذه الهوة أُمماً ، وما أكثر ما سحقت في باطنها حضارات ومدنيّات ، فعادت أثراً بعد عين ، وأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمس .

وما أشدّ عجبي ممن لا يستبين هذه الحقيقة ، ثم يمضي يسخّر الدين للدنيا ، ويقول بملء فيه : إن الدين جاء لرعاية الدنيا لا العكس . دون أن يعلم ما لا يمكن أن يغيب حتى عن الأطفال ، من أن الدين إذا غدا خادماً أميناً لحظوظ النفس ورغائب الدنيا وأهوائها ، فقد عاد هذا الدين المزعوم جزءاً لا يتجزأ من الدنيا ذاتها ؛ إذ لا يمكن أن تكون الحيل والذرائع الدنيوية ، مهما اختلفت مظاهرها وتعدَّدت أسماؤها ، إلا عنصراً من أهمِّ عناصر الدنيا وشهواتها . فأين بقيت حقيقة الدين الذاتية المستقلة إذن ؟!..

غير أن الإشكال الباقي في هذا الصَّدد هو :

كيف يتأتى للمسلمين أن يعمروا الأرض ويَشيدوا فوقها الحضارة ويحقّقوا أسباب الرَّخاء والرَّفاه الدنيوي ، إذا كانت الدنيا كلها ظلاً زائلاً في يقينهم ، وإذا كان جلّ اهتمامهم بأمر الدين وشؤون الآخرة ؟!..

هذا ما ستتكفَّل الفصول القادمة بشرحه والإجابة عليه ، إذا أكرمني الله فوفَّقني لإنجاز هذا البحث . إنه خير مأمول .

كَيْفَ يُبَصِّرُ ٱلْقُرْآنُ ٱلْإِنْسَانَ بِعَنَاصِرِ ٱلْحَضَارَةِ وَيَدُلُّهُ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلتَّعَاوُنِ مَعَهَا

هذه المقدمة الثالثة والأخيرة ، تتضمن خلاصة منهج القرآن في رسم أفضل السبل إلى الحضارة الإنسانية المثلى . وليست الفصول القادمة إلا تفصيلاً لهذا الموجز ، وشرحاً لهذه الخلاصة .

إن منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، يتلخَّص في تعريفه الإنسان تعريفاً دقيقاً على كل من ذاته ، وحياته ، والكون الذي يعيش فيه . وقد علمت أن هذه هي أركان أيّ حضارة إنسانية على مرِّ التاريخ الإنساني الطويل . فلا يتعلَّق عمل الإنسان أو الجماعات الإنسانية ، على اختلاف الأحوال والتَّقلُّبات ، إلاّ بها . أيّاً كانت عقيدتها ، ومهما كانت منزلتها في الثقافة والعلم والدراية .

وبتأمُّل يسير ، ندرك أن المقياس الوحيد لسير الحضارة الإنسانية في طريقها السليم ، وإمكان الحصول على ثمارها المرجوّة ، إنما يتمثَّل في مدى المعرفة الدقيقة لهوية كل من هذه العناصر الثلاثة ، والتَّنبُّه إلى الخصائص الحقيقية لكلٍّ منها . إذ بهذه المعرفة يتمكَّن الإنسان من الحصول على تركيبة الجهاز الحضاري الصحيح ، المتآلف من مجموعة هذه العناصر الثلاثة .

إن عملية إنشاء الحضارة ، إنما هي في الحقيقة صورة مكبَّرة جدّاً ، لأي تركيبة كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص ، من مجموعة مواد وعناصر معينة ، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحوّل إليه ، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها وشواردها ، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة ، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادّها وعناصرها الأولية ، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم .

وماقامت في التاريخ الإنساني حضارات جانحة ، أفسدت بدلاً من أن تصلح ، وأشقت بدلاً من أن تسعد ، مما قد سمعت به من أحوال أمم قد خلت وبادت ، إلا لأن أصحاب تلك الحضارات أخطؤوا في تصور حقيقة كل من الإنسان والكون والحياة ، ثم مضوا يبنون تصرفاتهم وتعاملهم مع الكون والحياة على أساس تلك الأخطاء ، من جراء ذلك إلى النتيجة ذاتها التي يصل إليها من قد أخطأ في فهم بعض المواد الكيميائية ، وضلّ في معرفة طبيعتها وخصائصها ، فاستحضر منها مركباً توهم أنه علاج وشفاء ، فإذا هو قد تحوّل إلى سمّ قتال ، وواضح أن الضرر لم يكن كامناً في ذات المواد وطبيعتها ، ولكنه تكون من طريقة التحضير التي جاءت نتيجة الجهل بخصائصها وسبيل التفاعل المفيد فيما بينها ، فتحول الصلاح فيها من جراء ذلك إلى فساد .

إن الإنسان الذي لا يعلم هويته ، ولا يقف على خصائص ذاته ، جدير به أن يركن إلى عرش وهمي من الجبروت والطغيان ، فهو لا يكاد يحتك بالناس والمكوّنات التي من حوله ، إلا ويتحول معهم إلى ما يشبه شجرتي المرخ والعفار[٨] ، كلما احتك غصن منهما بالآخر ، انقدح منه الشرر ، ثم تولدت منه النار ، ثم نشرها الريح إعصاراً ذات اليمين وذات اليسار .

وكذلك الذي عرف ذاته وخصائصها ، ولكنه لم يدرك حقيقة المكونات المنثورة من حوله ، وأخذ ـ بسائق الجهل ـ يؤلّه مظاهرها آناً ، ويراها جملة تحدّيات طبيعية للإنسان آناً آخر ـ جدير به أن لا يهتدي إلى الزمام الذي يمتدّ من أعناق أكثر تلك المظاهر الكونية إلى حيث تطوله يد أي إنسان عاقل متدبّر ، ليمسك به بالطريقة المناسبة ، ثم ليسخّر تلك المظاهر في خدمة الإنسان ومصالحه . بل سيظل شأنه معها (وهو يسميها الطبيعة) شأن الخائف الذليل منها أو العدو المصارع لها .

---

(١) شجرتان تنبتان في أرض الحجاز : إذا قدحت عوداً من إحداهما بالأخرى تولدت منها النار .

وقل مثل ذلك فيمن عرف ذاته ، وأدرك حقيقة الكون الذي يحيط به ؛ ولكنه لم يقف على سرِّ الحياة التي يتمتع بها ، ولم يعلم شيئاً من مصدرها ومآلها . فإن من الجدير به أن تسلمه الحيرة في شأنها والاضطراب في تصور كنهها ، إلى نوع خطير من الوحشة ضدّ ذاته .. ولسوف يقامر بحياته من حيث يريد أن يسعدها ويمتّعها . ولربما ساقته المقامرة إلى لون من ألوان الموت والانتحار .

ولكن أرأيت إلى الأمة التي أتيح لها أن تجتاز مرحلة قدسية من التأمل والفكر ، عرفت خلالها هوية الإنسان وأصله ومآله ، وأدركت أسرار هذا الكون ونواميسه وخصائصه وسماته ، ثم علمت معنى الحياة التي يتمتع بها وقيمتها ، ومصدرها وعاقبتها ؛ فإن هذه الأمة هي التي تدرك جوانب التَّلاقي والاتِّصال المثمر بين هذه العناصر الثلاثة في الوجود . فما أيسر أن تعمد فتؤلف بينها ، ثم تحدث من مجموعها تركيباً متناسقاً يمدّ الإنسان في ذاته ومجتمعه بأسمى مقومات الخير والإسعاد .

☆ ☆ ☆

ولكن من هذا الذي يستطيع أن يعرِّف الإنسان على هذه العناصر الثلاثة ، وأن يبصِّره بالوجه السليم لتسخيرها والاستفادة منها ، تبصيراً دقيقاً مطابقاً للحقيقة وواقع الأمر ، دون أن يشوبه خطأ أو وهم ؟

إنَّ من اليسير أن تعلم الجواب على هذا السؤال من خلال التَّأمُّل في سؤال آخر مشابه لهذا السؤال . وهو :

ما هو سبيل التَّعرف على جهاز جديد وصل لتوّه إلينا من المعمل الذي أنتجه ، ومن الذي يمكن أن يبصِّرنا بكيفية استعماله وطرق صيانته على الوجه الصحيح .

مما لا ريب فيه أن الذي يملك أن يعرِّفنا على هذا الجهاز وطريقة استعماله ، إنما هو مدير المعمل الذي أنتجه أو الشركة التي استقلَّت بإبداعه وإنتاجه . ولذا فإن من

المنطقي والضروري أن لا يصل إليك مثل هذا الجهاز ، إلا مصحوباً بالكتيب الذي يحوي تعريفاً مبسَّطاً لأجزائه وكيفية تركيبها ، ثم كيفية استعماله وطرق صيانته .

هل تجد من فرق في هذا المبدأ المتَّبع المعروف ، بين هذا الجهاز ، والأجهزة الثلاثة التي نتحدث عنها ، والتي لا تستقيم نشأة الحضارة الإنسانية إلا عليها ؟

إن الذي يملك أن يعرّف الإنسان على هوية كلّ من : الإنسان ، والكون ، والحياة ، إنما هو ذاك الذي استقلَّ بإبداعه وصنعه ، ثم وضع في كلٍّ منها قابليّته وأقامه على مهمَّته ووظيفته !.. فمن هو غير الفاطر الحكيم عزّ وجلّ ، ذاك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً ؟

وقد شاء هذا الفاطر الحكيم ، أن يحمِّل الإنسان مهمة عمارة الأرض كما أوضحنا ذلك من قبل ، وأن يكلِّفه بتسخير كثير من المكوِّنات التي من حوله ، والحياة التي تخفق بين جوانحه ، في سبيل إنجاز المهمة التي كُلِّف بإنجازها .

فكيف يسعى ، وكيف ينهض إلى أداء هذه المهمة ، ومن أين له أن يعرف خصائص هذه العناصر الثلاثة التي لا بدَّ أن يستعين بها ، وهو ذاتُه واحد منها ؟

ولكن الله عزّ وجلّ لم يتركه لجهالته وحيرته ، ولم يدعه لأوهامه وتخيُّلاته ، بل قرن له مع هذه العناصر التي كلّف بتسخيرها ، كتاباً مفصَّلاً غير ذي عوج ، يعرفه فيه على هذه الأجهزة الخطيرة واحداً واحداً ، ويهديه إلى كيفية استعمالها وإلى أفضل السُّبل للاستفادة منها .

فماذا بقي إذن ؟

بقي أن يقبل الإنسان ـ وهو سيِّد هذه العناصر ومحرِّكها ـ إلى هذا الكتاب ، فيتأكَّد قبل كل شيء بالبراهين العلمية ، أنه منزل من لدن هذا الفاطر الحكيم ذاته ؛ ثم يعكف عليه في تأمُّل وتدبُّر .. فسيتبيَّن في أعقاب ذلك حقيقة الإنسان ووظيفته في

هذه الحياة ، ومخاطر المسؤولية التي يتحمَّلها ، وسيعرف وجه العلاقة بينه وبين هذه الدنيا التي تحفُّ به من كل الجهات ، وسيدرك قيمة العمر الذي يتمتع به وكلاً من مبدئه ومنتهاه .

فإذا عرف الإنسان ذلك كله ، فقد آن له عندئذ أن يشمِّر عن ساعد الجدّ ، وأن يقبل إلى أداء المهمة المقدّسة التي شرَّفه الله بها من دون المخلوقات كلها ، متعاوناً مع إخوانه من بني جنسه ، ملتزماً المنهج الذي رسمه له هذا الكتاب .

وما من ريب أنه إن فعل ذلك ملتزماً بالتوجيهات التي أمامه ، مؤمناً بالمنطلقات التي أقيمت له في أول الطريق ، فلسوف يجري الله على يديه خيراً لا نهاية له ، ويخلق له من وراء جهوده سعادة لا يشوبها شقاء ، ولسوف يصدق فيه ، مع سائر إخوانه السائرين على منواله وعد الله عزّ وجلّ :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم ، ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذي ارْتَضى لَهُمْ ، ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً ... ﴾ [النُّور : ٢٤/٥٥] .

ألم يأنِ لنا إذن ، وقد علمنا هذا كله أن نبدأ فعلاً فنعكف على دراسة منهج الحضارة الإنسانية كما يرسمه لنا هذا الكتاب .. وقد سبق أن آمنّا بأنه منزل من قِبَل ربِّ العالمين وفاطر السماوات والأرض ، خطاباً للصَّفوة المختارة من خلقه ؛ وأن نتعرَّف من خلال ذلك على هوية كل من الإنسان والكون والحياة وخصائصه وسماته ، وعلى السبيل الأمثل لتحضير مركب حضاري سليم من مزيج التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة ؟

لا ريب أن جواب القارئ الموضوعي المفكر هو : بلى لقد آن ذلك . ولا أظن إلا أن حوافزنا وأفكارنا مهيّأة الآن للإقبال على ما يقوله لنا القرآن في هذا الصَّدد .

على أن هذا القرآن ما أُنزل على الإنسان إلا ليزوِّده بهذه المعرفة ، ليهديه من

ورائها إلى كيفية استعماله لهذه المرافق والاستفادة منها على خير وجه ؛ ثم ليتَّخذ من عمارة هذه الأرض وبنيانها الحضاري ، صراطاً معبَّداً ذَلولاً إلى التَّحقُّق بمعاني العبودية لله تعالى سلوكاً واختياراً ، كما قد فطر على هذه العبودية قهراً واضطراراً .

منهج الحضارة الإنسانية في القرآن

مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ فِي الْقُرْآنِ ؟

مَا هِيَ الْحَيَاةُ الإِنْسَانِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ ؟

مَا هُوَ الْكَوْنُ فِي الْقُرْآنِ ؟

مَا هِيَ الْمَعْرِفَةُ فِي الْقُرْآنِ ؟

مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ فِي القُرْآنِ ؟

قلنا في إحدى مقدّمات هذا الكتاب : إن الإنسان هو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة الإنسانية من تآلفها وتفاعل ما بينها . ذلك لأنَّ الإنسان هو العنصر المؤثر الفعّال ، أما الآخران ، فمنفعلان ومتأثّران ؛ ولأن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة ، وهو الهدف من ورائها . أما كل ما عداه ، فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك ، ليراها أمامه فيستعين بها ويستخدمها في بلوغ آماله وتحقيق رسالته .

من أجل هذا يحفل القرآن بالإنسان ، كما لا يحفل بغيره . فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريف الإنسان على ذاته ؛ ترى ذلك واضحاً فيه سواء من حيث أسبقية الترتيب أو النزول .

ألا ترى إلى أول آية قرآنية من حيث النُّزول ، كيف بدأت فاتَّجهت إلى الإنسان تعرّفه على ذاته ، وتشرح له أصله ومصدره ، وهي قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ☆ خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٩٦/١-٢] .

ثم انظر إلى أوائل الآيات القرآنية من حيث الترتيب الكتابي ، كيف بدأت هي الأخرى بالحديث عن الإنسان ، فقسمته إلى مؤمن وجاحد ومنافق ؛ ثم خاطبت هؤلاء الأقسام جميعاً فعرَّفتهم على هويّاتهم ، وأنبأتهم بقصة نشأتهم فوق هذه الأرض ، وكيفية خلق الله لأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام ، والمنزلة الكريمة التي أنزله الله إياها من بين سائر مخلوقاته ، والتكريم الذي مَنَّ عليه به حتى على ملائكته .

وهكذا بدأ القرآن ، قبل كل شيء ، وحسب أسبقية كلٍّ من الترتيب الكتابي والنزول الزَّمني ، بتعريف الإنسان على ذاته وتبصيره بأصله وخصائصه ، ومدى أهميَّته وخطورته في هذا الكون الذي يعيش فيه ... وذلك لأنه أهم العناصر الحضارية

وأخطرها ، ولأنه المحور الذي تدور عليه حركة معظم الموجودات المتماوجة من حوله ، ولأنه هو الذي سيكلّف بتسييرها وتسخيرها نحو هدف جدّ عظيم وخطير .

إذن .. فمن هو الإنسان في القرآن ، وما هي مزاياه وسماته ، وما هي مسؤولياته الكبرى في الحياة ؟

ولدى التّأمُّل ، نجد أن القرآن يبصِّر الإنسان بحقيقته وبمختلف مزاياه ، وبمهمَّته في الدنيا ، من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين ، داخلتين في قوامه وتركيبه الإنساني ، وبينهما ـ في الظاهر ـ ما يشبه التناقض أو التَّشاكس .

الحقيقة الأولى : أنه مخلوق تافه ، أصله الأول من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشّأن فيه ، إن طالت به الحياة ، أن يعود إلى أرذل العمر ، فلا يعلم ـ بعد علم ـ شيئاً . ويغلب عليه ، مع ذلك ، أن يشمخ بأنفه ، ويستكبر على الرغم من ذلّه ، وأن يخاصم ويعاند ، ويجادل ويكابر .

وإليك طائفة من الآيات التي تبصّر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة في ذاته :

ـ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ☆ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دافِقٍ ☆ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ ﴾ [الطَّارق : ٥/٨٦ـ٧] .

ـ ﴿ قُتِلَ الإنْسانُ ، ما أكْفَرَهُ ☆ مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ ☆ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ☆ ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس : ١٧/٨٠ـ٢٠] .

ـ ﴿ إنَّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليهِ ، فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً ﴾ [الدَّهر : ٢/٧٦] .

ـ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنْسانُ أنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ ﴾ [يس : ٧٧/٣٦] .

ـ ﴿ فَإِنَّا خَلَقْناكُم مِّنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ . ونُقِرُّ في الأَرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغوا أشُدَّكُم ومِنكُم مَنْ يُتَوَفَّى ، ومِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ، لِكَي لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [الحج : ٥/٢٢] .

أما الحقيقة الثانية : التي تشكل الجزء الآخر من الهوية الإنسانية في القرآن ، فهي أن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرَّم على سائر المخلوقات الأخرى ، وأنَّه ذاك الذي استأهل أن يكلِّف الله الملائكة بالسُّجود له ، متمثِّلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، وأنه الذي شرَّفه الله بالخلافة على هذه الأرض ، عندما شاء أن يجعله ـ بالمهمة التي حمَّله إياها ـ مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه ، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهَّزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور .

وإليك طائفة من الآيات التي تبصِّر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة الثانية في كيانه :

ـ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ ، وحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ ، ورَزَقْناهُمْ مِّنَ الطَّيِّباتِ ، وفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] .

ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ ، فَسَجَدوا إلاَّ إبليسَ ﴾ [البقرة : ٣٤/٢] .

ـ ﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠/٢] .

ـ ﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على الْمَلائِكَةِ فَقالَ : أنْبِئوني بِأَسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُم صادِقينَ ، قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الْحَكيمُ ﴾ [البقرة : ٣١/٢ـ٣٢] .

ـ ﴿ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥/٩٦] .

ـ ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانَةَ عَلى السَّمواتِ والأرْضِ والجِبالِ ، فَأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها وحَمَلَها الإنْسانُ ، إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢/٣٣] .

☆ ☆ ☆

ولا بدَّ لنا أن نتساءل الآن : فكيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للإنسان ؟.. وما وجه تركيز القرآن على كلٍّ منهما ؟.. وما هو أثر تنبيه الإنسان إلى اتِّصافه بكلتا هاتين الحقيقتين ؟..

☆ أما كيفية تآلفهما ضمن الهوية الإنسانية الواحدة ، فوجه ذلك أن الإنسان ، مهما بلغت مرتبته من السُّمو ، ومهما اتَّصف به من المزايا والصفات النادرة ، فليس شيء من ذلك نابعاً من ذاته ، ولا هو اكتسبه أو شيئاً منه بجهده واستقلال طاقته ؛ وإنما جاءه كل ذلك فيضاً من الله عزّ وجلّ ، وأمانة استودعت عنده إلى أجل . أما تكوينه الذاتي فمن تراب تافه ، ثم من ماء مهين ، ثم هو مخلوق عاجز ، في قبضة الله وحكمه . قد أطبقت عليه آصار العبودية لمن بيده خلْقه وتدبيره ؛ إن لم يقرّ بذلك لسانه طوعاً ، آمن به كيانه وواقع حاله قسراً .

غير أن الله عزّ وجلّ ، لما شاء أن يختاره لعمارة هذه الأرض ، وكلَّفه بتأليف أسرة إنسانية تقف تحت سلطان العبودية لله عزّ وجلّ ، وتقيم حياتها على منهج الشريعة الرَّبانيّة ، لتكون بذلك مظهراً لعدالة الله تعالى في الأرض ـ جهّزه بملكات نادرة ، وميَّزه بصفات سامية لم توجد في غيره . فأورثه العقل والتفكير ، وسخَّر له كثيراً من الحيوانات والمخلوقات ، وغرس في كيانه شعور حبّ الذات والإحساس بالأنانيّة ، وحبّ التَّملك واحتياز الأشياء ، وأمدَّه بالطاقة والقوة .

هذه الصفات ليست في حقيقتها إلا ظلالاً وفيوضات من صفات الرُّبوبية ، أنعم الله بها على هذا المخلوق ليستعين بها في أداء رسالته ، ولتيسر له السبيل إلى تحقيق

خلافته على الأرض ؛ فينشئ فوقها الحضارة الإنسانية المثلى التي حمَّله القرآن مسؤولية إنشائها في قوله : ﴿ هَو أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] .

وإذن ، فالإنسان ، في كينونته الذاتية عبد مملوك لله عزّ وجلّ ، خلق من ضعف وينتهي إلى ضعف . ولكنه نظراً للرسالة التي حمّلها ـ يتمتع بصفات نادرة جهّزه الله بها ، فاستأهل بموجبها الرفعة والتكريم ، إن هو استعمل تلك الصفات على وجهها . وهذه الصفات التي متَّع الله بها الإنسان وكانت مناط رفعته وتكريمه هي المعنيّ بالأمانة في قوله عزّ وجلّ :

﴿ إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ على السَّمواتِ والأرْضِ والجِبالِ ، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنها ، وحَمَلَها الإنسانُ ، إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢/٣٣][1] .

☆ وأما وجه تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معاً ، والاستمرار في تذكير الإنسان بضآلته وتفاهة أصله ، إلى جانب تذكيره بالمكانة التي يتبوؤها ، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات النادرة التي ركبت فيه ، والوظيفة التي كلّف بالنهوض بها : فلأن رجل الحضارة الإنسانية في القرآن ، هو ذاك الذي رُبِّي في ظلال هاتين الحقيقتين معاً ، وعاش يستلهم غذاءه التربوي من معرفة أصله وحقيقته وضآلة شأنه وذلّ نهايته ، ثم من معرفة ما قد أنعم عليه الخالق عزّ وجلّ ، مع ذلك ، من صفات وملكات نادرة ، وما قد أكرمه به من سموّ في الرتبة والمكانة ، وما شرّفه به من مسؤولية إنشاء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض .

فمن عاش لا يتبصَّر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها ، جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحية طغيان الجبابرة والمتكبِّرين ، ويبعده عن إنجاز أيّ عمل أو خدمة إنسانية مما قد حمله الله تعالى مسؤولية النهوض به ، ويقعده عن أي مساهمة في سبيل عمارة الأرض وإنشاء الحضارة الإنسانية المطلوبة .

---

(١) انظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للمؤلف : ص ٥٦ وتفسير العلامة الخنجواني في هذه الآية .

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلاّ أنه الإنسان المكرَّم الذي يملك من المزايا والصفات ما يخوله أن يبسط لنفسه حكماً وسلطاناً على كل ما حوله ومن دونه ، جدير به أن يسكر بنشوة تلك الصفات التي سبق أن قلنا ؛ إنها ليست في أصلها سوى فيوضات إلهية وظلالٍ لصفات الرُّبوبية ، ثم أن يجعل من نفسه حاكماً من دون الله عزّ وجلّ ، يبسط قهر ربوبيته الزائفة على سائر المستضعفين !..

وبالجملة ، فإن الشأن فيمن لم يتنبه ـ في يقظة عقلية وشعور وجداني صحيح ـ إلى مجموع هويته وذاتيته الإنسانية الجامعة بين هذين الشطرين ، كما أوضحنا . أقول : الشأن فيه أن يتطرَّف إمّا إلى سبيل التكبُّر والطغيان على الآخرين ، إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة ، وإمّا إلى سبيل من المهانة والخنوع ، إن خانته الظروف وخيَّبته الفرص والآمال . ومن هذين السبيلين يتحقق ما يسميه البيان القرآني : الإفساد في الأرض .

بل تلك هي آفة الحضارة الجانحة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ ، أو نجد بقاياها وأطلالها منثورة على جنبات الأرض ، وتلك هي قصة الفساد أو الإفساد في الأرض .. ذلك الإفساد الذي يظل القرآن يكرر الحديث عنه ، ويكثر التحذير منه ، ويلفت نظر الإنسان إلى مغبّات التَّورط في أسبابه ، وينبّهه إلى الرَّزايا والمصائب التي لا بدّ أن يتحمَّلها على أعقابه .

فما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة ، ولا بسوء ألَمَّ بها من هياج الحيوانات والوحوش ؛ وإنما استشرى فيها الفساد وألَمَّ بها البلاء ، يوم تاه بنو الإنسان عن هويّاتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية . فتألَّه الأقوياء ، وذلّ الضعفاء ؛ وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته : ذاك نحو التعالي والتجبُّر في الأرض ، وهذا نحو الخنوع وتقبُّل الهوان . فمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون ، وهاجت فيهم عوامل البغضاء ، ثم انتشر فيهم وباء التَّهارج والقتل . فتمَّت بذلك قصة

الفساد في الأرض . وهي قصة قديمة وحديثة ، تتكرر بتكرر عواملها وأسبابها ؛ والمهم أن تعلم أنَّ الأسباب هي الأسباب ذاتها ، وأحداث القصة هي الأحداث ذاتها ، مهما تطورت الدنيا ، واختلفت المدنيات والثقافات ؛ وأن تعلم أن سبيل الوقاية منها هي السبيل ذاته ، ذاك الذي رسمه القرآن ، وأفاد منه كل من تفهَّمه ووعاه ثم طبَّقه كما وعاه ، وهو السبيل الذي نحن بصدد شرحه وبيانه في هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆

وأما أثر هذا التَّنبيه المستمر من القرآن ـ في خطابه الإنسان ـ إلى اتِّصافه بكلتا هاتين الحقيقتين : العبودية الذليلة الخاضعة لسلطان الله ، والتكريم المنبثق عن الرسالة التي شرَّفته بها مشيئة الله ـ نقول :

أما الأثر الذي يتركه هذا التنبيه المستمر الذي نلاحظه في القرآن ، فيتمثل فيما يلي :

إنَّ من شأن الذي ربيت أحاسيسه ونفسه على كلا هذين الغذاءين ، أن تتنامى في كيانه وتحت سلطانه مشاعره ووجداناته ، هويته الإنسانية الكاملة ؛ فلا يتصرف إلا بوحي من هذه الهوية التي آمن بها أتمَّ ما يكون الإيمان ، ثم هيمنت على عواطفه ودوافعه السلوكية في سائر التقلُّبات والأحوال .

ولا بدّ أن تقيه هذه التربية القرآنية عندئذ عن الشرود إلى أي تطرُّف أو جنوح ذات اليمين أو ذات اليسار . فلا هو يركن إلى الخنوع والذُّلّ للآخرين ، مهما تجمعت عليه أسباب الضعف أو مظاهر الفقر والهوان ، ولا هو يطمح إلى شيء من التسلُّط والبغي والطغيان ، مهما أُتيح له أسبابها وتفتحت أمامه سبلها .

وما أدركت أمةً من الناس هذه التربيةُ القرآنية ، إلا وارتفع المستضعفون فيها عن مناخ الذّل الذي كان يشدّهم إليه ، ونزل المستكبرون منهم عن عروش تسلُّطهم

وطغيانهم ، ثم تلاقوا جميعاً على سبيل معتدل من التآخي والتعاون ، ابتغاء عمارة الأرض وإنشاء حضارة إنسانية سليمة فوقها . وهؤلاء الذين اصطبغوا بهذه التربية القرآنية ، هم رجال الحضارة الإنسانية وجنودها وهم المهيؤون لإنشائها في قرار القرآن وحكمه .

وإذا تأمّلت خطاب القرآن للإنسان ، وما يتضمّنه من تبصرة وإرشاد وتعليم ، رأيت ذلك كله يدور على محور هذا الهدف . فهو يهيب بالإنسان أن يبدأ فيدرك هويته ويتعرف على ذاته ، ثم أن يقيم سلوكه على أساس منسجم ومتين مع هذه المعرفة : فلا يذلّ أو يهون لغير من بيده حياته وموته ونفعه وضرّه ، ولا يرتدي كسوة الكبر والطغيان وهو يعلم أنه ليس إلا عبداً مملوكاً لسيّده ومولاه ..

ثم إن القرآن يدلُّ الإنسان على العلاج الذي يحرّره من قبضة الذُّل والخنوع ، ويوقظه من سكرة الكبر والطغيان ؛ ولسنا الآن في معرض الحديث عن هذا العلاج وكيفية استعماله .

ولكنا نختصر فنقول : إن الدين في مجمله وتفصيله ، ليس إلا الوصفة العلاجيّة الواقية أو الشافية من كلا هذين الوباءين اللذين لم يوجد أشدّ منهما فتكاً في جسم المجتمع الإنساني أو الحضارة الإنسانية .

انظر إلى حديث القرآن ، وهو يلخص لك مصيبة قوم فرعون به ، مستخرجاً بذلك العبرة لمن بعدهم من الأمم والجماعات ؛ وذلك عندما يحدّثنا عنهم قائلاً :

﴿ إنَّ فِرعَونَ عَلا في الأرضِ ، وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِّنهُم . يُذَبِّحُ أبْناءَهُم ويَسْتَحْيي نِساءَهُم إنَّه كانَ مِنَ الْمُفْسِدينَ ☆ ونُريدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُم أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ ☆ ونُمَكِّنَ لَهُم في الأرضِ ، ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهُما مِنهُم مَّا كانوا يَحْذَرونَ ﴾ [القصص : ٤/٢٨-٦] .

فالمصيبة تتلخص في علوّ فرعون وطغيانه ، مع خنوع قومه وذلّهم له . وإنما الذي يعالج جملة هذه المصيبة أن يصحو كل طرف إلى ذاته ، ويتعرف على حقيقته ، وأوله ومآله ، وإذا الطغيان يتحوّل ليناً وخضوعاً ، والخنوع يصبح عزّةً وشموخاً . ثم يتلاقى التعاون الحقيقي لبناء المجتمع الإنسان الرَّخيّ من تناسق هذين الطرفين .

وانظر إلى تصوير القرآن لثمرة هذا العلاج ، وسرعة ظهورها وانبثاقها ، وهو يحدثنا عن التَّحول السريع الذي طرأ على حال سَحَرة فرعون ، عندما آمنوا بنبوّة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ، وتنبَّهوا من ذلك إلى حقائقهم وعرفوا هويّاتهم ؛ وقد كانوا من قبل ذلك مثال الذُّل والمهانة بين يدي فرعون . حتى بلغ من تفانيهم له أن أنكروا وجودهم وعلمهم أمام جبروته وسلطانه ، وقالوا وهم يلقون بحبالهم أمام موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إنّا لَنَحْنُ الغالِبونَ ﴾ [الشُعراء : ٤٤/٢٦] ، أقول : فانظر إلى تصوير القرآن لكيفية تحوُّلهم عن وهدة هذا الذُّل العجيب بتأثير هذه اليقظة الإيمانية التي يهديها القرآن إلى كلّ ذي لبّ وفكر ، وتأمَّل فيما يقوله عنهم :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قالوا آمَنّا بِرَبِّ هارونَ وموسى ، قالَ آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُم . إنَّهُ لَكَبيرَكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحر ، فَلأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرْجُلَكُم مِّن خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُم في جُذوعِ النَّخْلِ ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عَذاباً وأبقى ☆ قالوا لَن نُّؤثِرَكَ على ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ والَّذي فَطَرَنا ، فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تَقْضي هذهِ الْحَياةَ الدُّنيا ، إنّا آمَنّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وما أكْرَهْتَنا عَليهِ مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيرٌ وأبقى ﴾ [طه : ٧٠/٢٠ـ٧٣]

فلقد تحوّلوا في ساعة واحدة من الذُّل المتناهي الذي جعلهم ينكرون وجودهم أمام سلطان فرعون وقوته الوهمية ، إلى أعلى مرتبة من التَّسامي فوق كبريائه ، والانعتاق المطلق من قيود طغيانه ، حتى لم يعد لتهديده الصاعق وغضبه المزمجر أي تأثير على نفوسهم .. نفوسهم التي اكتشفت حريتها منذ اللحظة التي اكتشفت فيها ذاتها

وعبوديتها لله عزّ وجلّ . ألا ترى كيف قالوا له دون أي خوف أو مبالاة بتهديداته : ﴿ .. فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ، إنّما تَقْضي هذهِ الْحَياةَ الدُّنيا ﴾ [طه : ٧٢/٢٠] . وهم الذين قالوا قبل قليل أذلاّء ضارعين : ﴿ بِعِزَّةِ فِرعَونَ إنّا لَنَحْنُ الغالِبونَ ﴾ [الشُّعراء : ٤٤/٢٦] .

وما يحدثنا القرآن عن أمة حاق بها الهلاك والدَّمار ، إلا ويخبرنا بأن مصدر ذلك فيها ، هو ضياع تلك الأمة عن رشد التَّعرف إلى ذاتها وحقيقتها ، إذ استوجب ذلك أن تتصدع بالتدريج إلى فئتين : أقلية مستكبرة باغية ، وأكثرية ذليلة مُستَضعَفة . فانبثقت من ذلك أسباب التَّمزق والدَّمار في حياتها ، ونزل بها قضاء الله الذي لا مردَّ له ؛ قراراً عدلاً ، وجزاءً وفاقاً ؛ ثم لم ينجُ منها إلا أولئك الذي استيقظوا إلى نفوسهم ، وتنبَّهوا إلى هويّاتهم ، فساقهم ذلك إلى قصد السبيل .

انظر إلى ما يقوله بيان الله تعالى عن قوم صالح ، وكيف يدير قصة هلاكهم على محور الاستكبار من جانب والضعف من جانب آخر : ﴿ قالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَروا مِن قَومِهِ لِلَّذينَ اسْتُضْعِفوا لِمَن آمَنَ مِنهُم أتَعْلَمونَ أنَّ صالِحاً مُّرسَلٌ مِّن رَبِّهِ ، قالوا إنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنونَ ، قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَروا إنّا بِالَّذي آمَنْتُم بِهِ كافِرونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥/٧ـ٧٦] .

وانظر إلى ما يقوله عن قوم شعيب : ﴿ قالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَروا مِن قَومِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيبُ والَّذينَ آمَنوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنا أو لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنا ، قالَ أَوَلَو كُنَّا كارِهينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨/٧] .

وإلى ما يقوله عن سبب هلاك فرعون وقومه : ﴿ فَاسْتَخَفَّ [1] قَومَهُ فأطاعوهُ ، إنَّهُم كانوا قَوماً فاسِقينَ ☆ فَلَمّا آسَفونا انْتَقَمْنا مِنهُم فَأغْرَقْناهُم أجْمَعينَ ﴾ [الزُّخرف : ٥٤/٤٣ـ٥٥] .

---

(١) استخفَّ قومه : أي استضعفهم واستذلَّهم .

ثم تأمّل فيما يصوّره القرآن من اعتراف هؤلاء الهالكين غداً ، إذا أحياهم الله للحساب والجزاء - وإنه ليوم آتٍ لا ريب فيه - إذ يبيّن من خلال اعترافهم هذا بأن سبب شقائهم لم يكن إلا سكرة المتكبّرين منهم بعتوّهم وطغيانهم ، وانصياع المستضعفين فيهم لأوامرهم وأحكامهم . يقول الله عزّ وجلّ مصوّراً لنا هذا الحوار :

﴿ ولَو تَرى إذِ الظّالِمونَ مَوقوفونَ عِندَ رَبِّهِم ، يَرْجِعُ بَعْضُهُم إلى بَعضٍ القَولَ . يَقولُ الَّذينَ اسْتُضْعِفوا للَّذينَ اسْتَكْبَروا لَولا أنتُم لَكُنّا مُؤْمِنينَ ☆ قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَروا لِلَّذينَ اسْتُضْعِفوا أنَحْنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدى بَعْدَ إذ جاءَكُم ، بَل كُنتُم مُّجْرِمينَ ☆ وقالَ الَّذينَ اسْتُضْعِفوا لِلَّذينَ اسْتَكْبَروا بَل مَكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ ، إذ تَأْمُرونَنا أن نَكْفُرَ بِاللهِ ونَجْعَلَ لَهُ أنداداً . وأسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذابَ ، وجَعَلْنا الأغلالَ في أعْناقِ الَّذينَ كَفَروا . هَل يُجْزَونَ إلاّ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ [سبأ : ٣١/٣٤-٣٣] .

☆ ☆ ☆

وبهذا نعلم أن المنطلق العلمي السليم لأي عمل يريد الإنسان أن ينهض به ، هو أن يبدأ فيعرف ذاته ، وخصائصه معرفة سليمة دقيقة .

ذلك لأن الإنسان ليس إلا جهازاً وأداة من أدوات ذلك العمل وإنجازه ، أيّاً كان نوعه وأهميته . ولا بدّ لمن يستخدم جهازاً أو آلةً ما أن يبدأ قبل كل شيء فيتعرّف على ذلك الجهاز ويتبيّن طبيعته وسماته وكيفية استعماله . ولا يمكن أن يستثنى من عموم هذه القاعدة الإنسان ذاته ، لأنه هو الآخر جهاز بيد نفسه ، يستخدم ذاته في إنجاز أخطر المهام وأشملها .

لذا يصح لنا أن نقول بحقّ : إن من لم يفتتح عمله ، أيّاً كان ، بهذه المعرفة ، لن يتمكّن من إقامة أي انسجام بين طبيعته وقدراته من جانب ، وطبيعة ذلك العمل من جانب آخر ؛ ولذا فلن تتهيّأ لديه ظروف إتقانه ، ولن يملك أسباب النجاح فيه . وكلما ازداد نطاق العمل اتّساعاً وأهمية ، برزت أهمية هذا الشرط بشكل أتمّ وأوضح .

فكيف عندما يكون العمل سعياً إلى إقامة المجتمع الإسلامي على وجهه السليم ، وهو ما نعنيه بالحضارة الإنسانية المثلى ؟ وهو عمل لا يستقلّ به جهد فرد أو قلّة من النـاس ، بل هو ثمرة جهود متناسقة لأمّة بكاملها !..

إلاّ أن هـذه المعرفـة التي يوجّـه القرآن الإنسـان إليهـا ، في أولى مراحل سعيـه نحو إنشاء الحضارة الإنسانية ، لا يمكن أن تتحقق إلا بسبيل واحد ، هو سبيل اليقين بوجود الخالق عزّ وجلّ ، واليقين بأنه إله واحد متَّصف بكلِّ صفات الكمال ؛ ويترتَّب على هذا اليقين تصوُّر العلاقة القـائمـة بين الإنسـان وهـذا الإلـه الخـالق عزّ وجلّ ، وهي علاقـة العبودية المطلقة من المخلوق لخالقه والخضوع الحتمي المطلق من المملوك لمالكه .

فبهـذا اليقين ومـا يترتب عليـه ، يتهيّـأ الإنسـان لأن يصحـو إلى معرفـة ذاتـه ، وحدود إمكاناتـه ، وخصـائصـه الفطريـة والاكتسـابيـة ؛ ثم إن هـذه المعرفـة تهـديـه ، كما قلنـا ، إلى قصـد السبيل بين طرَفي الإفراط والتَّفريـط ، وتحملـه على السير في ذلـك السبيل حملاً .

أمّـا من لم يؤمن بوجـود الخـالـق عـزّ وجـلّ ، فهـو لن يـذعن إذن بـأي عبـوديـة أو مـالكيـة يـدين بهـا لأحـد . وتلـك هي أولى منزلقـات ضيـاع الإنسـان عن ذاتـه ، واحتجـاب هويتـه عن عين بصيرتـه وفكره . ثم إنـه يـزداد ضيـاعـاً وابتعـاداً عن ذاتـه ومعرفة هويته ، كلما أقبل إلى نفسه فازداد افتتاناً وانخداعاً بالصفات والمزايا التي ركَّبها الله فيه ، وتاه عن أن الله زوَّده بها ليكون مستعدّاً لأداء المهمة الإنسـانيـة التي كلَّفـه الله النهوض بهـا . ومـآل هـذا التَّخبُّـط والضيـاع أن يتسلَّق هـذا الإنسـان عرش الرُّبـوبيـة الزائفة ، ثم يبسط بغيه وطغيانه على من حوله من النـاس إن أمكنتـه الفرصـة وأسعفـه الحظ ، ولم تخذله قوته وأسبابه ؛ أو أن يتخبَّط إلى قـاع من الـذُّل والخنوع لمن قـد أُتيح له أن يتسلَّط عليه ، من العتاة والمستكبرين ، إن خـانتـه الظروف وخـذلتـه الوسـائل والأسباب .

إذن ، فمآل المجتمع الذي لم يظلّه اليقين بوجود الله عزّ وجلّ ، أن يتيه أفراده عن التّعرف إلى أنفسهم ، ثم أن ينتهي بهم ذلك التّيه إلى أن ينقسموا إلى قلّة عاتية باغية تطفو على سطح المجتمع وتنادي لنفسها بالرُّبوبية من دون الله عزّ وجلّ ، وكثرة مُسْتَضعَفة مهينة تدين ـ شاءت أم أبت ـ لسلطان تلك الرُّبوبية وأحكامها الجانحة الظالمة .

وتلك هي حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود إله واحد خالق لهذا الكون ، مسيّر لنظامه وقيّوم على كل شؤونه . أي إن الله عزّ وجلّ ما ألزم عباده بأن يعرفوه ويستيقنوا وجوده ، إلا ليهديهم من خلال ذلك اليقين إلى أيسر طريق يتعرفون به على أنفسهم ويدركون به هويّاتهم في خضمّ هذا الوجود ، فيعرفوا بذلك سبيل التعاون فيما بينهم ، والاستفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم ، ثم يسعوا إلى ذلك في ظلٍّ من التّآلف والإخاء .

فإن لم يهتد الناس إلى هذا السبيل لتحقيق غاياتهم وإقامة حضارتهم ، كان المآل ـ بدون ريب ـ أن يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ؛ وكانت نتيجة هذا المآل أن يشيع الفساد في الأرض ، وأن يتحوّل الإنسان إلى مادة شقاء لنفسه ولبني جنسه .

وما أشدّ وضوح هذا الواقع في قول الله عزّ وجلّ :

﴿ قُل يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيننَا وبَينَكُم أن لا نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِّن دونِ اللهِ ، فَإن تَوَلَّوْا فَقولوا اشْهَدوا بِأنّا مُسْلِمونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤/٣] .

والآية تصرح ببيان جازم بأن أمام الناس اختيارين لا ثالث لهما : إما اليقين بوجود الله تعالى واحداً لا شريك له ، والدينونة له وحده بالعبودية والخضوع المطلق ، فلا بدَّ أن يعيشوا عندئذ في ظلّ ذلك اليقين وتلك الدَّينونة ، إخواناً متساوين

ومتآلفين ، وإما الجحود بوجود الله وألوهيّته ، ولا بدَّ عندئذ أن يقع بينهم التَّهارج والخصام ، وأن يتَّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

ولعلك تحسب أن هذه الصورة لا تنطبق إلا على تلك المجتمعات القديمة التي كان يشيع فيها وجود متألّهين ، يدعون لأنفسهم الرُّبوبية المطلقة ، مثل كثير من الفراعنة ، وبعض الأكاسرة . وأن المجتمعات التي جاءت فيما بعد ، لا سيما الحديثة ، مبرّأة من ظهور من قد ينادي فيها لنفسه بالرُّبوبية ويدعو الناس إلى عبادته .

والحقيقة أن الواقع الذي لا بدَّ أن يفرض نفسه ، في قرار القرآن وحكمه ، عند عدم الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وما يتبعه من معرفة النفس الإنسانية وحقيقتها ، هو واقع تألّه على الآخرين ، وبسط لمقتضيات الرُّبوبية الزائفة ، إلاّ أن هذا الواقع أعمّ من أن تستعمل له كلمات (الرُّبوبية) و (العبودية) أو لا تستعمل .. فما أيسر أن يمارس المتألّهون ألوهيَّتهم الزائفة من خلال شعارات الحرية والمساواة والعدالة والدِّيموقراطية ونحوها .. بل كلنا يعلم أن مناداة الإنسان لنفسه بين قومه بالرُّبوبية غدت طريقة بدائية بالية نحو هدف التَّسلط والطغيان ، وإنما خير سبيل مستحدث إليهما امتطاء سلَّم من الشعارات الخادعة التي تعبِّر عن نقيض المقصود . انظر إلى جنبات ذلك العالم النّائي الذي يتباهى بإلحاده ونزعته المادِّية المجرّدة ، ودعِ الشعارات والألفاظ فيها جانباً ، أفلا ترى بكل وضوح مظاهر الرُّبوبية التي كان الأقدمون من فراعنة ونحوهم ينعتون أنفسهم بها ؟ بل إنك لواجد ما هو أبلغ من ذلك وأخطر في ظلِّ حياتنا الجديدة التي تفور بمصطلحات وشعارات جديدة . وحسبك أن ترى كيف تنسحق إنسانية الإنسان سحقاً ، رعاية لربوبية الأرباب وحماية لهم عن أن يُمسوا بأي تذكرة أو نقد !.. فماذا يخفف من البلاء أو يغيِّر من الحقيقة ما قد تراه من الفرق بين أولئك (الأرباب) المتوَّجين الذين خلوا من قبل ، وهؤلاء (الأرباب) غير المتوَّجين الذي جاؤوا على أعقابهم اليوم ؟..

فإن غُمَّتْ عليك رؤية هذه الحقيقة ، في ربوع الغرب الأوربي والأمريكي ، حيث يشيع فيها ما يسمى بالحرية والديموقراطية والحديث عن قيمة الإنسان وحقوق الإنسان ، فانتبه إلى الإله الذي تعنو جباههم جميعاً بالخضوع لسلطانه ، ألا وهو إله المادة واللذة . فلو أن المسلمين اليوم دانوا لربٍّ العالمين جلَّ جلاله ، عشر تلك الدَّينونة الواجفة الخالصة ، بالعقيدة والسلوك ، لذلك الإله المزيَّف الذي يحكم اليوم ربوع الغرب بأسرها (إله المادة واللذة) ، إذن لاجتمع أمر المسلمين اليوم على أحسن حال ، ولأدركهم الله تعالى بالكثير من رعايته ولطفه !..

فإذا تنبَّهت إلى هذا ، فسيكون بوسعك أن تلاحظ مدى الطغيان الذي يبسطه أولئك الديموقراطيون (الإنسانيّون) حماة الحرية والحق على طول البلاد وعرضها ، تقرُّباً إلى إلههم المعبود المتمثِّل في المادة .. ولا شيء غير المادة .. وهل الاستعمار بكل ما ترى له من صنوف وألوان ، في سائر الجهات والبقاع ، وكل ما تسمعه من تهديدات الحروب المدمرة ، وأمواج الفتن والحروب الجزئية المشتعلة ، إلاّ قرابين تقدم إرضاء لإله المادة وطاغوته ؟..

فهل يمكن أن يزحزح هذا اليقين عن فؤادك ، ما قد تراه في تلك الربوع من الكنائس الشامخة أو ما قد تسمعه على ألسنة أولئك الناس من حديث الحرية والإنسانية والدين والإيمان ؟..

إنَّ من البداهة بمكان أن هذه المظاهر والكلمات نفسها ، تقدم هي الأخرى قرابين في سبيل إلههم المعبود من دون الله : إله المادة واللذة .

☆ ☆ ☆

وخلاصة ما ذكرناه ، أن القرآن يربِّي الإنسان بغذاءين اثنين ؛ أحدهما ينمي فيه الشعور بتفاهة أصله وبعبوديّته الثابتة لله عزّ وجلّ . ثانيهما ينمي فيه الشعور بعزّته وكرامته وأهميّته في الكون الذي خلقه فيه .

ولا يتهيّأ الإنسان لقبول هذين الغذاءين أو حتى لأحدهما ، إلا بعد يقينه بوجود الله عزّ وجلّ ، ربّاً واحداً لا شريك له لهذه المكوّنات كلها .

فإذا تكاملت هذه التربية في الإنسان ، فذلك إذن هو رجل الحضارة الإنسانية في القرآن .. وذلك هو الرجل الذي هيّأه القرآن لعمارة الأرض وإنشاء أرسخ مجتمع إنساني فوقها .

إنه الرجل الذي لا يهون ولا يذلّ .. ولكنه لا يطغى ولا يستكبر أيضاً . وهو الرجل الذي لا يجهل موقعه الذي أقامته الأقدار الرَّبانية فيه ، كما لا يجهل المهمة الكبرى التي عهدت بها إليه ؛ وهي : بذل كل جهد ممكن في سبيل خدمة الإنسانية المطلقة ، ومن أجل صهرها في بوتقة من التّآلف والمحبة والإخاء .

وقد علمت أن هذا الشعور لا يتكامل لدى الإنسان إلا بشروط .. وهي على كثرتها وتفرُّعها ، تندرج تحت شرط أساسي واحد : هو أن يتعرَّف الإنسان على هويته وحقيقته بكلّ دقّة .

غير أن هذه المعرفة تجعله يلتفت بالتأمل والنظر إلى حياته التي يحياها ، إذ هي عدّته الأولى في كل سعي وعمل .. فما هي حقيقة الحياة التي نحياها ، وما مصدرها ومآلها ، ومتى يجدر بالإنسان أن يكون متمسّكاً وضنيناً بها ، ومتى يجدر به أن يضحّي بها ولا يلقي لها بالاً .

تلك هي الركيزة الثانية لإنشاء الحضارة الإنسانية . ولذلك فإن القرآن لا يكاد ينبّه الإنسان ويعرّفه على ذاته ، حتى ينقله بعد ذلك إلى التَّعرف بحقيقة الحياة التي يتمتع بها .

فما هي الحياة في تعريف القرآن ؟

هذا ما سيستقلّ ببيانه والإجابة عنه الفصل التالي المباشر إن شاء الله .

مَاهِيَ ٱلْحَيَاةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

والحياة الإنسانية هي ما نعبِّر عنه عادة بالعمر .

ومن المعلوم أن أشدّ ما يتعلَّق به الإنسان من دنياه إنما هو عمره ؛ أي حياته التي يتمتَّع بها ؛ فهو ضنين بها أكثر من أي شيء آخر يمتلكه . وما يكدح الإنسان في سبيل رزق ، أو بناء دار ، أو التَّجمُّل بكساء ، أو التَّلذُّذ بطعام ، إلا سعياً إلى رعاية هذه الحياة ، وتسبُّباً لاستبقائها إلى أطول زمن ممكن .

وقد عبَّر البيان الإلهي عن هذا السَّعي اللاهث لدى الإنسان ، في سبيل التعلُّق بالحياة والمحافظة عليها ، بعبارة موجزة جامعة ، هي قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ ما كُنْتَ مِنهُ تَحيدُ ﴾ [ق : ١٩/٥٠] .

وإنها لحكمة باهرة أن يطبع الله الإنسان على هذا التعلُّق بالحياة .

ذلك لأنها أقدس رأس مال يملكه الإنسان على الإطلاق ! إذ هي الوسيلة الزمنية التي لا ينهض إلا عليها جميع الأسباب والشروط التي لا بدَّ منها ، لاستخدام الأرض وعمارتها ، واستغلال ذخرها ومكنوناتها المختلفة ، من أجل إنشاء المجتمع الإنساني السليم فوقها .

فكانت الحكمة قاضية ـ نظراً إلى أهميّتها هذه ـ بأن تنطبع الغريزة الإنسانية في أصل كينونتها على حبِّ البقاء ، والتَّعلق بالحياة . شأنها في ذلك كشأن العين من حواس الإنسان . لما كانت بالغة الأهمية في وظيفتها ، إلى جانب كونها شديدة الضعف وسريعة التّأثر في أصل كينونتها ، خلق الله في أصل الغريزة الإنسانية مزيداً من أسباب الحماية لها ، ينقاد الإنسان لها بدون إرادة منه ولا قصد ، كالحركات الانعكاسية التي ترعى العين وتكلؤها ، دون أي اتجاه أو قصد من صاحبها إلى ذلك .

غير أن الحياة ما دامت ـ كما قلنا ـ رأس مال أساسي يملكه الإنسان ، فلا بدَّ أن يتصرَّف بها الإنسان إذن على هذا الأساس ، بأن يسخّرها لما هو بصدده من الواجبات والأعمال ، وأن يتَّخذها أداة لإنجاز المهمة التي أُنيطت به . وعندما يقبل الإنسان على تسخير حياته بهذا النحو ، فلسوف يجد نفسه في بعض الأحيان في موطن يستدعي أن يغامر برأس ماله هذا ، كما أنه يجد نفسه في حالات كثيرة أخرى بحاجة إلى أن يزداد تمسُّكاً به وحرصاً عليه . وذلك حسبما يقتضيه إنجاز المهمة الكبرى التي أُنيطت به .

وإذا لم نتصور الحياة لكلتا هاتين الحالتين ، فلا معنى إذن لليقين بكونها رأس مال بين يدي الإنسان ، بل تكون الحياة عندئذ شيئاً مقصوداً لذاته ، لا يبتغى بها أي هدف آخر . وهذا ما لا يقرّه المنطق ، ولا يقرّه المنهج القرآني بحال ، كما سيأتي إيضاحه .

فمتى يجب على الإنسان أن يجازف ويغامر بحياته ، ومتى يجب أن يكون ضنيناً بها وحريصاً عليها ؟.. وما وجه العلاقة بين ما يسعى الإنسان لأجله ، من أمانيّ وأهداف من جهة ، ومسألة هذه المجازفة بها أو المحافظة عليها من جهة أخرى ؟

لا ريب أن الإجابة الدقيقة على هذا السؤال تتوقف على معرفة أوجه الانسجام أو التفاوت بين القيمة الحقيقية لهذه الحياة من جانب ، وما نسخّرها لنيله من الأهداف والمصالح المختلفة والمتفاوتة من جانب آخر . فإذا عرفنا أوجه هذا الانسجام بالبراهين العلمية السليمة ، أتيح لنا أن نعرف متى يجدر بنا أن نجازف بالحياة ونضحّي بها ، ومتى يجدر بنا أن نكون ضنينين بها محافظين عليها .

غير أن معرفة جوانب هذا الانسجام أو التَّفاوت ، لا يمكن أن تتمَّ بدورها إلا بعد معرفة دقيقة لحقيقة هذا العمر أو الحياة التي نتمتع بها ، من حيث مصدرها ومآلها وما يعقبها .. فمن لم يتح له أن ينال هذه المعرفة بميزان علمي سليم ، فلا ريب أنه لن تتاح له معرفة قيمتها الحقيقية . ولذا فإنه لن يكون على بيِّنة مما ينبغي أن يتَّخذه من المواقف عندما يتعارض بعض المهام الإنسانية مع بعض الشروط الأساسية لبقاء الحياة ،

أو ضمانة بقائها على أقل تقدير . أي إنه يحار ولا يعلم : هل يجب عليه أن يجازف بالحياة في سبيل الهدف الإنساني النبيل ، أم عليه أن يضحّي بهذا الهدف في سبيل المحافظة على الحياة وضمان بقائها !..

فمن هنا اقتضى المنهج القرآني المرسوم لإنشاء الحضارة الإنسانية المثلى ، أن يبدأ القرآن ـ بعد أن عرف الإنسان على ذاته ـ فيعرفه على حقيقة العمر الذي يتمتع به ، من حيث المبدأ والمنتهى ، والأحداث التي تنتظره بعد هذه الحياة ، ومن حيث علاقة العمر بتلك الأحداث المقبلة عليه .

وإنك لتجد أن القرآن ، في الوقت الذي يتوَّجه بكثير من آياته إلى تبصير الإنسان بذاته وما قد ركب فيه من المزايا ، وما حُمِّله من الوظائف والمهامّ ، ينفق آيات كثيرة أخرى على تبصير الإنسان بحقيقة العمر الذي يتمتع به ، وقيمته بالنسبة لأحداث ما بعد الموت .

وما ذلك إلا لأن عمر الإنسان هو الأداة الأولى ـ بعد جوهره الذاتي ـ لتسخيرها من أجل أي عمل يريد التَّوجه إليه . ومحال أن يتمكن الإنسان من استعمال أداة لا يعلم حقيقتها ، ولا يدري شيئاً عن أهميتها ، ووجه العلاقة بينها وبين ما يريد أن يستخدمها من أجله ؛ إلا أن يستعملها على غير هدى ، فيأتي من ذلك نتائج عشوائية عابثة ، منتظراً من خلالها ما قد تأتي به رياح المصادفة .

فما هي الحياة الإنسانية في تعريف القرآن وتحليله ؟

سنجد أن القرآن يتَّخذ في تعريفه للحياة ، الموقف ذاته الذي رأيناه في تعريف الإنسان وتحليل حقيقته .

فكما أن لفت نظر الإنسان إلى جانبين متباعدين ضمن ذاته وكيانه ، موضحاً له أن التكامل الحقيقي لجوهر الإنسان وكينونته ، إنما يتمّ بتلاقي هذين الجانبين ، وتمازجهما ،

كذلك يلفت نظر الإنسان هنا إلى جانبين متباعدين من حقيقة الحياة الإنسانية (أو العمر الذي يتمتع به الإنسان) ثم يوضح أن التكامل الحقيقي لجوهر هذه الحياة ، لا يتم إلا من خلال تمازج هذين الجانبين في اعتبار الإنسان ويقينه .

فلنصغ إلى القرآن ، وهو يعرِّف لنا الجانب الأول من حقيقة الحياة ، من خلال هذه الآيات :

﴿ اعْلَموا أَنَّما الْحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينَةٌ وتَفاخُرٌ بَينَكُم ، وتَكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ ، كَمَثَلِ غَيثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ[1] نَباتُهُ ، ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكونُ حُطاماً . وفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ ومَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ ورِضْوانٌ ، وما الْحَياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرورِ ﴾ [الحديد : ٢٠/٥٧] .

﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فَأصْبَحَ هَشيماً تَذْروهُ الرِّياحُ ، وكانَ اللهُ على كُلِّ شيءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [الكهف : ٤٥/١٨] .

﴿ وما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنيا إلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَو كانوا يَعْلَمونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤/٢٩] .

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ ، مَتاعٌ قَليلٌ ثُمَّ مَأْواهُم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦/٣ـ١٩٧] .

﴿ قُل مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ ، والآخِرَةُ خَيرٌ لِّمَنِ اتَّقى ولا تُظْلَمونَ فَتيلاً ﴾ [النّساء : ٧٧/٤] .

﴿ ولَكُم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤/٧] .

﴿ وهُوَ الَّذي أحْياكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحْييكُم إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٦/٢٢] .

---

(١) الكفّار هنا بمعنى الزرّاع .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إلَينا تُرْجَعونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٧/٢٩] .

إنك لترى أن التقرير الذي تلتقي عليه هذه الآيات ، عن قيمة الحياة الإنسانية وحقيقتها ، يتلخص في أنها ليست إلا معبراً إلى الحياة الآخرة ، وأن الإنسان إنما يأخذ من هذه الحياة إلى تلك ، حصيلة كسبه وأعماله ، لينال عليها الجزاء الأوفى : إن خيراً فخير ، أو شرّاً فشرّ . وهي ـ في تقرير هذه الآيات ـ حياة قصيرة ، تقوم بين موتين ، ثم تليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها ، والتي يبدو جليّاً إلى جنبها تفاهة هذه الحياة وعدم أهميتها ، حتى لتبدو للإنسان ، بعد اجتيازها ، وكأنها حلم قصير .

ويبدو جليّاً من هذه الآيات ، أن مصدر تفاهة هذه الحياة ، أو هذا العمر الذي نعيشه ، ما يؤكده القرآن ، من أن حياتنا هذه ليست هي الحياة الوحيدة التي يعيشها الإنسان ، وأن الموت الذي يتربَّص به ليس عبارة عن الغلاف الأخير لقصة هذا الوجود الإنساني !. بل إن حياتنا هذه ، بكل ما تموج به من أحداث ، ويتعالى فيها من ضجيج ، ليست سوى مقدمة في فصول القصة .. أو هي أول فصل قصير فيها .

فتأمل ، كم تبدو هذه الحياة التي نمرّ بها ، ضئيلة ، عندما تكون مجرد مقدمة أو دهليز إلى تلك الحياة الخالدة الأخرى ، التي لا يفتأ القرآن يكرِّر وصفها ، ويؤكِّد وجودها ، ويتحدث عن مدى أهميتها ، كي يشدّ نظَر الإنسان وطموحه إليها ، ولكي يقيه بذلك من الاستغراق بل الغرق في أمواج هذه الدنيا الخادعة الفانية ، فيقَع بعد ذلك في مغبّة الحسرة والنّدامة ، إن لم يُعِرْ هذا المصير أي نظر والتفات ، ولم يَصْحُ إليه إلا بعد فوات الفائدة والأوان .

ولكم يبدو هذا جليّاً ، بل مخيفاً ، في قوله تعالى :

﴿ ويَومَ يَحْشُرُهُم ، كَأَنْ لَّمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعَةً مِن النَّهارِ ، يَتَعارَفونَ بَيْنَهُم ؛ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذّبوا بِلِقاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدينَ ﴾ [يونس : ٤٥/١٠] .

وفي قوله : ﴿ ويَومَ يُعْرَضُ الَّذينَ كَفَروا على النَّارِ ، أَذْهَبْتُم طَيِّباتِكُم في حَياتِكُمُ

الدُّنيا واسْتَمْتَعْتُم بِها ، فاليَومَ تُجْزَونَ عَذابَ الهُونِ بِما كُنتُم تَسْتَكْبِرونَ في الأرضِ بِغيرِ الْحَقِّ ، وبِما كُنتُم تَفْسُقونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠/٤٦] .

وحسبك من ذلك كله أن الله تعالى سمّى الحياة الدنيا بالعاجلة ، فيقول مرة :

﴿ كَلاّ بَل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وتَذَرونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة : ٢٠/٧٥ـ٢١] .

ويقول مرة أخرى : ﴿ إنَّ هؤلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ ويَذَرونَ وَراءَهُم يَوماً ثَقيلاً ﴾ [الدَّهر : ٢٧/٧٦] .

☆ ☆ ☆

ولكن ، أرأيت لو أن القرآن قصر حديثه عن هذه الحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب منها ، وظلَّ يؤكد هذه الحقيقة وحدها ـ إذن لكان حريّاً بالإنسان أن لا يقيم لحياته وزناً ، وأن لا يحفل بشيء من ساعات عمره الذي يمرّ به . بل لكان من مقتضى ذلك أن يهون أمرها في نظره سواء من حيث الرعاية لها ، أو العدوان عليها . فما أبسط أمر العدوان عليها أو التفريط فيها ، ما دامت بهذه التَّفاهة التي يصفها القرآن .

بل الشأن يتجاوز الحياة عندئذ إلى سائر متعلقاتها أيضاً . إذ نظراً إلى أن هذه الحياة التافهة أصل ووعاء ، بالنسبة إلى ما يفرغه الإنسان فيه من منجزات وأعمال ، فإن تلك المنجزات والأعمال تصبح هي الأخرى تافهة الجدوى ضئيلة القيمة ؛ كيف لا ، وإن الزمن الذي يحويها ويعتبر أساساً ومنبعاً لها ، تافه في ذاته ، قصير في أمده ؟!..

وإذن ، لما حرك الإنسان في حياته ساكناً ، ولأغنته سكنى الكهوف عن تعمير البيوت واتِّخاذ القصور ؛ ولما التفت إلى شيء مما يسمى بعمارة الأرض وإقامة المجتمع الإنساني ، أو الحضارة الإنسانية في شيء من جنباتها ؛ ولشغله عن ذلك انتظار الموت ليأتي فيتخطفه من تلك الحياة التافهة .

ولكنَّ القرآن لم يقتصر في التعريف بالحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب

وحده ؛ بل سرعان مالفت النظر إلى جانب آخر من حقيقتها ، ودعانا إلى فهم الحياة فهماً متكاملاً جامعاً بين تصوُّر كلا جانبيها ؛ وهو في تعريفه لنا بالجانب الآخر من حقيقة الحياة الإنسانية ، يكشف عن قداسة وحرمة بالغة لها ، ويدفع الإنسان إلى سبيل رعايتها والعناية بها ، ويشرع لها من الأحكام ما يضمن حمايتها من أي عدوان ، ويُنهض الإنسان إلى حراستها ، وبذل كل جهد في سبيل وقايتها من المخاطر والآفات . فلنصغ إلى طائفة من الآيات القرآنية التي تشرح من حقيقتها هذا الجانب :

﴿ مَن عَمِلَ صالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ﴾ [النَّحل : ٩٧/١٦] .

﴿ مِنْ أجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنا عَلى بَني إسْرائيلَ أنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيرِ نَفْسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فَكَأنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً ، ومَنْ أحْياها فَكَأنَّما أحْيا النَّاسَ جَميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢/٥] .

﴿ ولا تُلْقوا بِأيْديكُم إلى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥/٢] .

﴿ ولَكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألْبابِ .. ﴾ [البقرة : ١٧٩/٢] .

﴿ ومَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، وغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ ، ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظيماً ﴾ [النساء : ٩٣/٤] .

﴿ ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وَأَحْسِن كَما أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧/٢٨] .

فأنت ترى أن مجموع هذه الآيات القرآنية ـ ومثلها في القرآن كثير ـ قد وضع الحياة الإنسانية ، في إطار من القداسة والرعاية والأهمية ، وحسبك أن تلاحظ كيف أن البيان الإلهي جعل السعي إلى إنقاذ حياة إنسانية من عوادي الموت والردى ، في ميزان الله عز وجل ، بمثابة إحياء الناس جميعاً ، وكيف توعد بالمقابل على إزهاق الحياة

الإنسانية البريئة ، بعقاب لم نر مثله في القرآن على أيّ معصية أو جريمة أخرى ، ولنعد لنتأمل مرة ثانية خطورة هذا الكلام وما فيه من سلسلة التوعدات :

« ... فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدّ له عذاباً عظيماً » !...

ثم انظر كيف ينهي البيان الإلهي رغبة الإنسان في الحياة الطيبة ، ويلفت نظره إلى أقصر السبل إليها ، عندما يقول : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة » ... وكيف ينهاه عن أن يزج بحياته في المخاطر والمهالك ، بل رخص له أن ينطق بكلمة الكفر ، إذ وجد أنّ حياته قد أصبحت مهددة ، ألا تراه يقول :

﴿ ... إلاَّ مَنْ أُكرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمانِ ﴾ [النحل : ١٠٦/١٦] .

أي فلا ضير عليه أن يحرز حياته بالنطق بكلمة الكفر ، في مثل هذه الحال .

ثم انظر كيف حظر البيان الإلهي على الإنسان الإقدام على إزهاق حياته ، مهما كانت الأسباب ومهما أطبق عليه الكرب والبلاء [١] ، ثم دعاه إلى أن يمتع نفسه وحياته بمباهج الدنيا ومتعتها في حدود ما شرع له من مباحات وحقوق .

---

(١) يلحّ بعض الناس اليوم في البحث عن فتوى تبيح الإقدام على الانتحار - في بعض الحالات القاهرة ، تخلّصاً من عذاب قد يلجئ الإنسان إلى البوح بما يجرّ ضرراً على المسلمين . ونحن لا نجد في بطون كتب الشريعة الإسلامية ، ولا في شيء من قواعدها ما يجيز الإقدام على هذا الأمر . والأحاديث الصحيحة المعروفة في هذا الحكم عامة تشمل سائر الأحوال . إلى جانب بيان الله تعالى في محكم كتابه . والذي نعرفه أنه لا يجوز الإقدام على عمل محرّم بإجماع المسلمين ، واستناداً إلى أدلة لا تقبل الرّيب ، تخلّصاً من أضرار وهمية قد تقع وقد لا تقع .
ولكنّا في الوقت ذاته لا نتألّى على الله عزّ وجلّ ، فقد يعفو عمن عصاه ، وقد يتقبّل اجتهاداً جنح إليه لقصد مبرور على الرغم من أنه اجتهاد في معرض نص . غير أن هذا شيء وحرمة الفعل شيء آخر . فلا يعود أحدهما على الآخر بالنّقض . وعلى كلٍّ فليس من اليسير إصدار فتوى تخالف إجماع المسلمين في أمر يستند إلى نص بل نصوص لا تقبل الاحتمال .

فإذا تبيَّن لك هذا الجانب الثاني الـذي أتمّ بـه القرآن بيـان حقيقـة الحيـاة وتبصير الإنسان بها ، فلنعد لنتبيَّن صلة ما بين هذا الجانب والجانب الأول في رسم حقيقة الحيـاة وبيان جوهرها وقيمتها .

والحقيقة أن كلاًّ من هذين الجانبين يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجـانب الآخر . فكل منهما ، عندما ينفصل عن الآخر ، ويصبح بمعزل عنه ، يغـدو بـاطلاً من الأمر ، وخارجاً عن معنى الحياة وحقيقتها .

فلو لم يدرك الإنسان ضآلة الحياة التي يمرّ بها ، لما أفاده شيئاً علمُه بمـدى أهميَّتهـا ، وبكونها رأس مـال عظيم متَّع الله بـه الإنسـان . ولو لم يـؤمن بمـا أضفى الله عليهـا من قداسة وحرمة ، وشرع لها من رعاية وحماية ، لما فهم من معاني تفاهتها وقلة شأنها سوى وجوب الإعراض عنها والسَّعي إلى التَّخلص منها عندمـا يمسـه أقل ضيق أو تنزل بـه أي محنة .

نعم إن هذه الحياة قصيرة ، كما وصف الله تعالى ؛ وهي العاجلـة حقّـاً كما سمّـاهـا . ولكن هل يستلزم كونها كـذلـك أن لا يحفل الإنسـان بهـا ، وأن يعرض عن الاستفـادة منها فلا يُقبل عليها في إصلاح أي أمر والنهوض بأي عمل ؟

إن الجسر الـذي يصل مـا بين الرجل وقريتـه ، ممتـدّاً على نهر عريض ، تـافـه من حيث قصره ، وقلّة شأنه ، إذا ما نُظر إليه بحدِّ ذاته . ولكنه بـالغ الخطورة ، في الوقت نفسه ، من حيث إنه السبيل الوحيد الذي يوصل الرجل إلى قريته وبيته .

وإن الساعة الامتحانية التي يجتازها الطالب ، تافهة بحدِّ ذاتها ، أي إذا ما نظرت إليهـا من حيث هي مدّة زمنيـة ضيقـة ؛ ولكنهـا ذات أهميـة قصوى ، من حيث إنهـا تنطوي على فرصة نادرة ، يتوقف على استغلالها أمر مصيري في حياة الإنسان وسلوكه .

غير أن المهم في هذا الصَّـدد ، هو أن نتـأمَّل لنـدرك أن استفـادتنـا الصحيحـة من

الجسر في المثال الأول ، ومن الساعة الامتحانية في المثال الثاني ، متوقفة على أن نعرف كلتا صفتي التفاهة والأهمية في كلٍّ منهما .

فمن أقبل عائداً إلى داره مع المساء ، ولما بدأ يجتاز الجسر المنصوب فوق النهر الذي يفصل بينه وبين قريته ، راقه جمال المكان والمنظر ، وأنعشته الرياح التي تهبُّ رخيّة من حوله ؛ فنسي داره التي هو بسبيل التّوجه إليها ، وألقى عصا التّسيار هناك ، غير راغب بديلاً عن ذلك المكان الذي راق لخاطره وقلبه ، ناسياً أنه إنما يمرُّ فوق جسر ، وأنه من التّفاهة بحيث ما ينبغي أن يتوقف عنده ويركن إليه ـ أقول : إن من كان في مثل هذا الغباء ، حريّ به أن ينقطع عن داره وقريته ، وأن لا يصحو إلى الحقيقة التي خدع عنها ، إلاّ وقد جنّه الليل ، واحتوشته السِّباع ، وضاعت عليه معالم الطريق .

ونظير هذا الغبي المخدوع تماماً ، من يقف على طرف النقيض من سلوكه هذا ، بأن لا يدرك لهذا الجسر من فائدة أو أهمية ، ولا يتنبَّه إلى أي ضرورة له ، من أجل مواصلة سيره وبلوغ غايته ؛ فيمضي معرضاً عنه غير عابئ به . فإنه هو الآخر حريٌّ به أن يقع في المغبّة ذاتها ، وأن يصحو على المصيبة نفسها .

فلتعلم أن ذلك هو شأن هذه الحياة الدنيا التي نمرُّ بها ، دون أي فرق ... فلا سبيل إلى معرفة حقيقتها ، وتقديرها حقّ قدرها إلا من خلال هاتين النظرتين المتكاملتين اللتين ينبهنا إليهما القرآن في تمازج وبكل دقّة وتنسيق .

فمن حبس تصوُّره عند إحدى هاتين النظرتين ، فقد أدرك منها شطر الحقيقة ، وكان في تعامله معها كمن يعالج نصف حجر الرحى ؛ إذ إن شطر الحقيقة لا يمكن أن يثمر شطر نتائجها لو كانت متكاملة . بل هو يساوي ، من حيث النتائج فقدانها أو تمام الجهل بها .

ولقد وقف بعض الناس ، فعلاً ، عند الشطر الأول الذي رسمه القرآن للحياة ، والذي عرضنا لطائفة من الآيات التي نبهت إليه ورسمته بكل دقّة ؛ ثم لم يتابعوا تتمة

الصورة في شطرها الثاني ؛ ففرّوا إلى الكهوف القاصية ، واستأنسوا بالوحوش بدلاً من الناس ، وراحوا يعانقون شبح الموت انتظاراً لمقدمه وفراراً من مسؤوليات الحياة . فسعوا بذلك إلى خراب الأرض بدلاً من أن ينفذوا أمر الله في النهوض بعمارتها . وكان مصدر خطئهم وانحرافهم أنهم استعجلوا ، ووقفوا من فهمهم للحياة عند شطر حقيقتها ، دون أن يتابعوا فهم شطرها الثاني . وفهم نصف الحقيقة قد يؤدي في الواقع إلى الجهل بها كلها والوقوع في نقيض مقتضاها .

كما وقف آخرون من فهمها عند شطرها الثاني فقط ، إذ لم يطب لهم أن يفهموا عنها سوى صفة الحرمة والقداسة وواجب الحماية والرعاية ، وأخذوا يلتقطون من القرآن تلك الآيات التي تدعم من حقيقة الحياة هذه الصفة وحدها ؛ فكان عاقبة ذلك أن نظروا إليها على أنها المصدر والمآل ، وركنوا إليها ركون من اطمأنَّ إلى أنها اليوم الذي لا مساء في نهايته ، ولا غد من ورائه . فاتَّخذوا بذلك من الممرات والدهاليز موطناً ومقاماً ، وعشيت أبصارهم ـ بسبب انمحاق نصف الحقيقة عنها ـ عن رؤية ما وراء تلك الدهاليز ، وتبلّدت مشاعرهم عن تحسّس سيرهم الحثيث نحو النهايات التي يحثون الخطى إليها شاؤوا ذلك أم أبوا . فكانت النتيجة أن سعى هؤلاء أيضاً إلى إفساد الأرض وخرابها ، ولكن من سبيل أخرى غير التي سلكها ذلك الفريق الأول ، وبطريقة غير تلك التي مارسها أولئك . وسيأتي بيان ذلك قريباً إن شاء الله .

ولكن الحياة الدنيوية في قرار القرآن وبيانه التربوي الدقيق ، ليست ممزقة ولا منشطرة إلى هذين الشطرين المتعارضين .

وإنما هي في حكمه وقراره دهليز إلى مقرّ ، وممرّ إلى الوطن الذي لا تحوّل عنه . والدهليز يجب أن يُفهم على أنه دهليز . أي فشطبه عن الاعتبار حمق وغباء ، والركون إليه ذهول واغترار ؛ أما فهمه على حقيقته واستعماله على وجهه ، فيكشف عن وجه أهميته ، ومدى الحاجة إليه ، على الرغم من أنه ليس أكثر من دهليز .

فتأمَّل في تربية الله لعبده ، وفي دقّة تبصيره بمرافق الدنيا التي يعيش فيها ، وكيف بدأ فعرفه على ذاته من كلا جانبيه ، وأراه في كلٍّ من الجانبين علاج الجانب الثاني . ثم عرَّفه على حقيقة الحياة التي يتمتع بها ، فنبَّهه إلى أنها ممرّ وليست مقرّاً ، ثم نبَّهه مع ذلك إلى مدى خطورتها وأهميّتها ، وإلى القداسة التي أضفاها الله عليها من أجل ذلك ؛ وذلك كي يتخذ الإنسان منها ممرّاً إلى خير مستقرّ ، ولكي لا يضيع من حياته لحظة من غير طائل ، وليسخّرها لإنجاز المهمة التي أنيطت به على أفضل وجه .

☆ ☆ ☆

ولنتساءل الآن : ترى ما هي الآثار الحضارية التي يمكن أن تتجلى في أي مجتمع أخذ نفسه بهذا التوجيه القرآني ، ففهم أفراده الحياة الإنسانية بمعناها المتكامل الذي بصرنا به القرآن ؟

بوسعنا أن نتبيَّن الجواب الواضح عن هذا السؤال من واقع الحضارة الإنسانية التي أنشأها رجل الحضارة كما صاغه وربّاه القرآن ، في غرّة تاريخنا الإسلامي المجيد .

لقد كان من أبرز الآثار الحضارية لاتِّباع هذا المنهج والانصباغ به ، أن أحدهم كان يقبل على الحياة إقبال العارف بها ، المستأنس لها ، مهما كانت حاله وظروفه . فلم يكن يتبرَّم بها لضيق ألَمَّ به ، ولم يكن ينتشي بها أو يلهث وراءها للذّة نالته منها .

لقد فهمها ـ كما حدّثه القرآن ـ جسراً إلى غاية ، وفرصة لأداء مهمة ؛ فهي بحلوها ومرّها وسيلة وسبب لتحقيق هدف ، وليست هدفاً بذاته تحفُّ به الوسائل والأسباب . فسيّان بعد هذا أن تكون نفقاً مظلماً يجتازه صاحبه في باطن الأرض ، أو طريقاً معبّداً يقطعه بين الزهر والرياحين .

إذ إن الذي يقلل أو يهوّن من فرق ما بين الحالتين في نظره ، أنها على كل حال ، ليست أكثر من طريق . وإنما يستمدّ الطريق وصفه وحكمه الحقيقي من طبيعة الغاية

والنهاية التي سينتهي إليها ، ومن تصوُّره لها . فالنهاية السعيدة المتوقعة تضفي على الطريق انشراحاً وأُنساً ، حتى ولو كان نفقاً في باطن الأرض ، والنهاية المظلمة الموحشة تغمس الطريق إليها بالظلام ذاته والوحشة نفسها ، حتى ولو كان مضاء بخطوط النّيون ومفروشاً بالزهر والورد .

لقد استطاع رجل الحضارة القرآنية بحكم فهمه للحياة وتقويمه إياها على هذا الأساس ، أن يستخدم حياته من أدقّ السُّبل وأقومها لتحقيق مبادئه وغايته دون أن يدخل مع الآخرين في أي مزاحمة أو صراع ، ودون أن يزهد في فرصها السانحة وأعمالها المفيدة ويفرّ منها إلى الكهوف .

كما استطاع رجل الحضارة القرآنية هذا ، أن يستخرج من فهمه المتكامل للحياة مقياساً في غاية الدّقة ، يعلم بواسطته متى ينبغي أن يكون ضنيناً بالحياة محافظاً عليها ، ومتى يجب أن يتحول فيصبح سخيّاً بها . إذ هو بحكم التربية التي تلقاها من القرآن ـ لا يتعامل مع الحياة على أساس مشاعره النفسية تجاهها ، وإنما على أساس ما تقتضيه الوظيفة التي كلّف بإنجازها . فكان طبيعيّاً منه أن يوليها من الأهمية والقيمة بقدر ما يمكن أن تكون سبيلاً إليه ، أو عقبة في طريقه .

فبهؤلاء الرجال نشأت أول حضارة إنسانية في ظلّ المجتمع الإسلامي الذي أنشأه ورعاه سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وانظر .. بل أصخ بسمعك جيداً إلى سجل هذه الحضارة وتاريخها ، أتستطيع أن تلتقط أسماء عشرة من رجالها فرّوا من بؤس حياتهم إلى الانتحار ؟.. هذا مع العلم بأن نصيب تلك الأجيال من المصائب والمآسي ، أضعاف ما قد ينزل من ذلك بالناس اليوم في ظلّ هذه المدنيّة ومنجزاتها .

إنك لن تستطيع أن تعثر ولا على أسماء خمسة ، أقدموا على ذلك .

ولكن انظر ، كم كانت تهون عليهم أرواحهم ، في الوقت ذاته ، وكم كان يلذّ لهم أن يعانقوا الموت والرّدى عندما يجدون القيم والمبادئ مهدّدة ، وأن حراستها لا تتمّ إلا ببذل الحياة وإراقة الدماء !.. وما أكثر ما كان يرسل خالد بن الوليد إلى قادة الفرس والروم كتباً يقول لهم فيها : « .. لقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة » وفي بعض الأحيان : « لقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون شرب الخمر » .

والمهم في هذا أن تعلم أن مصدر هذه الاستهانة بالحياة لم يكن طبعاً خاصّاً بهم ، أو عشوائية في تقدير الحياة وأهميتها ، أو ضيقاً بها لعوامل وأسباب نفسية ؛ إذ لو كان الأمر كذلك ، لكان جديراً بهم أن يتخلّصوا من أثقال الحياة عند نزول أدنى ضائقة بهم ، ولكان انتحار أحدهم ، تخلُّصاً من آفات الحياة ونكباتها أولى أن يشبه في السهولة والرغبة بشرب الخمر .

وإنما جاءت هذه الاستهانة بالحياة عن قرار عقلي وقناعة فكرية ، على أعقاب التَّبصرة التي بصَّرهم بها القرآن ، بصدد التعريف بحقيقة هذه الحياة ، والكشف عن قيمتها وعن الميزان الدقيق الذي يشير إلى ارتفاع هذه القيمة أو انخفاضها حسب الظروف والنتائج المنوطة بها .

ولذلك تجدهم قد أتقنوا التميز بين الظروف التي تستدعي الاعتصام بالحياة وشدّة التَّمسُّك بها ، والظروف التي تتطلب الاستهانة بها والتّسامي فوقها .

بل لقد برعوا في حركتهم السريعة المتبصرة ، بين طرفي ذلك الاعتصام وهذه الاستهانة ، براعة جعلتهم يقفزون قفزاً فوق سلّم الحضارة الإنسانية ، ويسخّرون حياتهم على الوجه السليم ، إلى أقصى حدود الإمكان .

لقد كانت المحن والكروب الدنيوية تسحق أحدهم سحقاً ، فلا يتأفَّف من حياته ، ولا يتضجَّر من ثقلها . ويظلُّ صابراً متجمِّلاً ، كأن ضيقاً لم يتسلَّل إلى نفسه . وكأنه لخافته الشديدة من الموت ، لا يبالي أن يفرّ منه إلى التعلُّق بالحياة ، حتى ولو كانت

مليئة بالبؤس والآلام . ولكأنه ليس هو الذي يقتحم أسباب الهلاك بنشوة راضية ، كلما هُدِّد صرح الحق ، أو تسلل كيد إلى بنيان المبادئ والقيم .

وما أكثر ما حوى تاريخ الحضارة أسماء رجال من أمثال عمران بن الحصين ، الذي لم يذق من حياته سوى مرارة البؤس والآلام . فلقد أثبته مرض عضال على سرير من جريد النَّخل قرابة ثلاثين عاماً ، دون أن يفارق البشر وجهه أو تفارق البسمة شفته . ولما رأى أخاه العلاء يبكي ، مرة عنده ، قال له : لِمَ تبكي ؟ قال : لهذه الحال التي أنت فيها . قال : لا تبكِ ، فإنَّ أحبّه إلى الله أحبّه إليّ .

وبوسعك أن تلاحظ أثر هذه التبصرة القرآنية ، في الصياغة الجديدة التي صيغت بها نفوس أصحاب رسول الله ﷺ وعقولهم ، عندما تقارن بين نظرة أحدهم إلى الحياة وتعلُّقه بها ، إذ كان يعيش أيام جاهليّته ، ونظرته الجديدة إليها وتقويمه لها بعد أن دخل في رحاب الإسلام ، وأصغى إلى بيانات القرآن وهديه .

ودونك ، فانظر إلى حياة كل فرد من أصحابه عليه الصلاة والسلام ، لتجد فيها المَثَل الذي يجسِّد لك هذه الحقيقة : تأمَّل حال عمر في جاهليته ، ثم الانقلاب الذي داهمه بعد إسلامه ؛ وانظر إلى مصعب بن عمير ، فتى الحياة المترفة ومثال التعلُّق النفسي بأهوائها في جاهليته ؛ وفتى التَّحرُّر من كل مغرياتها وأهوائها من بعد إسلامه . ثم انظر إلى تلك النساء اللائي كاد أن يهلكهن الجزع على الحياة في جاهليّتهنّ ثم أهلكهنّ حبّ التضحية بها والتَّرفع فوقها بعد إسلامهن .

ولعل من الخير أن أجسد لك هذه الظاهرة ، في مثال الخنساء رضي الله عنها[١٣] . فقد مات في جاهليَّتها أخوها صخر ، إذ لم تكن أدركت بعد حقيقة هذه الحياة وقيمتها ، وعلاقتها بما وراءها . فأخذ الجزع منها كل مأخذ ، وملأت الدنيا من حولها بكاءً وعويلاً ، واسودَّ وجه الحياة أمام عينيها ، وحدَّثت نفسها بالقتل والانتحار ، فهي القائلة :

ولـولا كثرة البـــاكين حـولي على إخـــــوانهم لقتلت نفسي

فلما شرَّفها الله بـالإسلام ، وأقبلت إلى القرآن تصغي إليـه ، وتتعرَّف عن طريقـه لأول مرة على حقيقة الحياة الدنيا ، وشأنها ، وقيمتها في ذاتها ، وبالنسبة للحياة الأخرى التي هي ممرّ إليها ودهليز لها ـ: زايلها الحزن والكرب ، وبدأت تستنشق رائحـة الحيـاة من جديد . ثم أخـذت تعطيهـا من نفسهـا ومن كل مـا تملـك ، بمقـدار مـا يتنـاسب مع حقيقتها وجوانب الأهمية التي فيها ، وما يمكن أن تُسخَّر لتحقيقه من القيم والأهداف .

وفي ظلِّ حياتها الإسلامية هذه ، كان لها أبناء أربعة ، هم كل ما كانت تعتزّ بـه من دنياها وممتلكاتها . فلما كانت حرب القـادسيـة ، دفعت بهم جميعـاً إلى أوارهـا المشتعل ؛ وقالت لهم وهي توصيهم :

« يا بَنِيَّ ، إنكم أسلمتم لله طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لَبنو رجل واحـد وامرأة واحـدة . مـا خنت أبـاكم ، ولا فضحت خـالكم . وقـد تعلمـون مـا أعـدَّ الله للمجـاهـدين امضـوا إلى قتـال عـدوّكم مستبصرين ، وبـــالله على أعـدائـه مستنصرين » .

ثم جاءها النَّبأ بمقتل أبنـائهـا الأربعـة . فكيف استقبلت الخبر ؟.. كيف استقبلت نبـأ مقتل أولادهـا الأربعـة ، تلـك التي مـلأت الـدنيـا عـويـلاً على وفـاة أخ لهـا اسمـه صخر ؟!.

لم تزد على أن قالت صابرة ، بل شاكرة :

« الحمـــد لله الـــذي شرَّفني بقتلهم جميعـــاً ، وأرجـــو الله أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته »[1] .

---

(١) راجع ترجمة الخنساء في الإصابة : ٢٨٠/٤ ، وانظر كتاب المرأة والسياسة في صدر الإسلام للدكتور أحمد الكبيسي ، فهو من أفضل ما ألّف حديثاً في هذا الباب .

وإنك لتعلم أن القادسية ، تعدُّ في التاريخ ، معْلَمة من أبرز معالم الحضارة الإسلامية ، ولكنَّ الأهم من هذه المعرفة أن تعلم أن سُدى ولحمة هذه الْمَعْلَمة الكبرى ، إنما يتمثَّلان في هذه الصياغة القرآنية التي صيغت بها أفئدة رجال القادسية وعقولهم . فقد كان مصدر استبسال المسلمين فيها (وفي غيرها من الغزوات) الاستهانة بالحياة الدنيا في سبيل عواقبها وآثارها ، وتسخيرها من أجل الهدف الأكبر الذي تمَّ اليقين به . على حين أن مصدر استبسال الفرس فيها ، لم يكن إلا حرصهم على تلك الحياة ، وشدّة تعلُّقهم بها ، والخوف على ما استمرؤوه من نعيمها ولذائذها . وشتّان بين من يقاتل مستهيناً بالحياة وما فيها ، ومن يقاتل متعلِّقاً بالحياة وزخرفها [1] .

وها هنا يكمن حلّ ما يسمونه باللغز .. لغز الفتح الإسلامي على حدٍّ تعبير المؤرِّخين الأجانب وطائفة من علماء الاجتماع .. ذلك لأنهم يقفون (فيما يتصورون) من قصة الفتح الإسلامي وآثاره الحضارية السريعة المتلاحقة التي تكاملت خلال ربع قرن فقط ـ يقفون منها أمام لغز مقفل ، لم تصل عقولهم إلى حلِّه وتفسيره ، حسب ما يعرفونه من طبيعة المجتمعات وقوانينها ، ومنطق الأحداث ومقتضيات الأسباب .

---

(١) ما أكثر ما نسمع في هذا العصر من يهتف باسم القادسية ، وينتشي بالحديث عنها . والغريب أن هؤلاء الناس لا يسألون أنفسهم ، مع ذلك ، مرة واحدة عن السِّرّ الذي إليه مرجع انتصار المسلمين في القادسية وحديث التاريخ عنها ، كما لا يسألون أنفسهم مرة واحدة عن السبب الذي جعل أيديهم لا تطول ذلك الشرف الذي أحرزه أجدادهم في قليل ولا كثير !..
فليتمسحوا بأمجاد القادسية وذكرياتها ما طاب لهم ذلك ، فإنهم لن يستيقظوا من ذكراها واجترار الحديث عنها إلا على مزيد من الذّل والهوان ، ما داموا يتعامون عن المفتاح الذي إليه مردّ الفتح الإسلامي ، وما أعقبه من نهضة حضارية لم يتحدث التاريخ بمثلها ، ألا وهو التَّبصرة القرآنية التي نتحدَّث عنها في هذه الفصول . وهي تبصرة أخذت بها أمم وأجيال ، فسادت ، ومتَّعها الله متاعاً حسناً طبقاً لما وعد في قرآنه . وأعرض عنها أمم جاءت على أعقابها ، على الرغم من أنهم يتلون كتاب الله ويسمعون عظاته ، ويوقنون ـ ظاهراً ـ بما فيه . فذلَّت وهانت ، وتمزَّقت بين قوى من سلَّطهم الله عليها .
وسيأتي لهذه الحقيقة مزيد بسط وتحليل إن شاء الله في أواخر هذا الكتاب .

نقول : إن اللغز محلول . وحلّه يتمثَّل فيما يلي : بدأ أولئك الناس ، فصححوا قبل كل شيء مفاهيمهم المغلوطة عن أنفسهم وهوياتهم ، ثم انتقلوا بعد ذلك فصححوا أغلاطهم عن تصورهم لمعنى الحياة التي يتمتعون بها ، ثم تعرَّفوا على حقيقة المكوِّنات التي تطوف من حولهم ، وتنبَّهوا إلى العلاقة القائمة بينهم وبينها ؛ كل ذلك على ضوء ما بصَّرهم به القرآن ونبَّههم إليه ، وذلك بعد أن اجتازوا مرحلة اليقين بأنه كلام الله تعالى وخطابه الموجَّه إلى الصفوة المختارة من مخلوقاته .. ثم قاموا فجابهوا بهذه المعرفة التي تحققوا بها أُمماً لا تزال تائهة في أخطائها وضلالها عن معرفة ذاتها ، ومعرفة حقيقة العمر أو الحياة التي تتمتع بها ، والمكونات التي تزخر من حولها .

فماذا تنتظر من رجال علموا أن قيمة هذه الحياة إنما تكمن في التضحية بها وتقديمها قرباناً سخيّاً في سبيل الهدف الأقدس ، ألا وهو بلوغ مرضاة الخالق عزّ وجلّ وضمان السعادة الخالدة في العقبى ـ : ماذا تنتظر من هؤلاء الرجال ، عندما يقابلون أناساً اعتصروا الحياة نعيماً ، وسكروا بها حتى تطوحوا وغشّى السّكر ألبابهم ، ثم أقبلوا يقاتلون حفاظاً عليها وضنّاً بها ، وقد أيقنوا عند أنفسهم أن الموت هو النهاية المطلقة لكل وجود ونعيم !!..

☆ ☆ ☆

تلك هي صورة وجيزة عن بعض الآثار الحضارية التي تجلَّت في تلك المجتمعات التي أخذت نفسها بالتَّبصرة القرآنية عن حقيقة الحياة وقيمتها .

غير أن بوسعنا أن نزيد رؤية هذه الآثار جلاءً ووضوحاً ، ونتبيَّن مزيداً من دلائل اللزوم بينها وبين منهج القرآن إلى فهم الحياة والإنسان والكون ، إذا ما التفتنا فانتبهنا إلى الآثار السيئة التي تفشَّت في المجتمعات التي ضلَّت عن هذه التبصرة القرآنية ، وانطلقت تتعامل مع الحياة على أنها الفرصة الوحيدة السانحة للإنسان ، وعلى أنها اليوم

الذي لا غد من ورائه ، ولا عاقبة له إلا الزوال والعدم المطلق . وبذلك نجمع بين مظهري الطرد والعكس في البرهان التطبيقي على صحة ما نقول .

ولنتخذ من المجتمعات الأوروبية اليوم نموذجاً للنظر والاعتبار .

كيف ينظر الإنسان هناك إلى العمر الذي يتمتع به ؟.. إن أحدهم يُقبِل من الحياة على سرّ غامض مجهول ، لا يدري كيف تلبَّسه ولا يعلم إلى أيّ عاقبة سيؤول .

كل ما يتصوَّره منها أنها الفرصة الوحيدة لممارسة الوجود واقتطاف ثماره . فإذا خبت جذوة العمر ، فقد انقضى حظّ صاحبه من الوجود كله ، وعاد إلى ظلمات العدم المطلق !..

وبناء على هذا التَّصور ، يقبل أحدهم على الحياة ، كما يقبل الإنسان على حدث يقامر به !.. فهو يمارس حياته بنفس هائجة قد أيقنت أنها من طوايا هذه الحياة أمام حظ .. حظ واحد لا يتبدل ولا يُنسخ ولا يعود . فإما أن يرى فيه برج سعادته أو يُفاجأ منه بأسباب شقائه !..

فتصوَّر ، وقدِّر حال نفس إنسانية تشعر بأنها أمام مائدة قمار لا خيار لها في الإعراض عنها أو الإقبال عليها ، وهي ليست مقامرة بمال يذهب ويعود ، بل بمضمون هذا العمر كله . فإما أن تكتسي منه بُرد السعادة والنعيم ، ثم يأتيها الموت وفي نفسه منها أصداء اللَّذائذ وآثار النَّشوة ؛ وإما أن ينغمس منها في عذاب وشقاء ، ثم يتخطَّفه الموت ، وهو يعاني من غصّة أنه رأى بوارق السعادة ولم يذقها ، ولاحت له مظاهر النعيم دون أن تدنو إليه فيلمسها !.. تصوّر حالة هذه النفس كم تكون هائجة ومضطربة ، وكم ينال منها القلق بكل ماله من عواقب الألم والأسقام !..

وإنك لتعلم أن صاحب هذه النفس الملتاعة ، سيكون بعد ذلك أحد رجلين :

فإما أن يطالعه من الحياة حظ عاثر ـ كما يراه هو طبعاً ـ فتطوف به النَّكبات ،

وتمسّه المصائب والآلام ، ويمضغه الفقر والأسقام . فشأن هذا الإنسان عندما يجرّ نفسه جرّاً في فجاج الحياة ، كشأن من قضي عليه أن يسير في نفق مظلم طويل ، وقد أيقن أنه مسدود النهاية . هل تتربَّص به سوى اختناق أو انتحار ؟

وإما أن تقبل إليه الحياة بأسباب الرغد والنعيم ، ويتيسر له سبل السعادة ولذائذها ، والشأن في مثل هذا الإنسان أن يهيج نحوها بنفس ثائرة ، مسابقاً إليها احتمالات الزمن ، وطوارئ الأحداث والظروف . ولا بدَّ أن يبعث طاقته كلها أوزاعاً هنا وهناك ، ليلمّ ويلتقط كل ما يلوح له من مظاهر اللذة وأسباب النعيم في أسرع وقت ممكن . ولا بدَّ أن يتفنَّن ويستنجد بالحيل المختلفة لإبداع مظاهر وأنواع جديدة من المتعة واللذة ، بحيث كلما تقادمت في حياته متعة مما قد ألفه وملّه ، تجاوزه بحثاً عن لذة مستحدثة ، لم تملّها النفس بعد .

غير أن الواقع الذي يفرض نفسه ، أنه لا بدَّ أن يصل إلى عصارة النعيم وزبدة اللذائذ ، فيضطره الحال إلى أن يقعد ويجترّ متعته التي استعصت على مزيد من التطوير والاعتصار . وعند ذلك يبدأ فيشعر بالسآمة والملل ؛ ضرورة أن لذائذ الحياة محدودة ، والنفس الإنسانية بطبيعتها ملولة . وقد استنفدت الحياة ذخرها ولذائذها ، حتى عادت من كثرة اجترارها والتكرار لها عصارة تافهة ، ليس من ورائها شيء !.. هنالك لا بدَّ أن تغشّي السآمة على القلب ، وأن يستبدَّ به الضَّجر ؛ فيضيق صاحبه ذرعاً بالحياة ، ويختنق ضمن ما قد سئمه من مظاهر التَّرف والنعيم ، كما يختنق دود القزّ وسط لفافات الحرير . ثم إنه لا بدَّ أن يَلجأ بعد ذلك إلى إحدى نهايتين :

إما أن يسلمه الضجر والضيق إلى اضطراب فكري يسلمه أخيراً إلى لون من ألوان الانتحار.

وإما أن تزجَّه حاله تلك في بعض الأمراض العصبية أو العقد النفسية ، وتستحكم به عوادي القلق والاضطراب ، فيتخذ من العيادات النفسية ملجأ ومثابة له ، ويتنقل من واحدة إلى أخرى .

والعيادات النفسية (وما أكثرها اليوم في تلك الربوع) لا تعالج مرضاها إلا بالكلمات الخادعة والأوهام الباطلة . فلا يتحول عنها المرضى إلا وهم أسوأ مما كانوا . وإنما مردّ أحدهم بعد ذلك أن يصبح كلاًّ على مجتمعه ، يعيش مع الشاردين والشاردات ، على هوامشه وبين جنباته بدلاً مما كان يرجى له : أن يكون عضواً عاملاً في مجتمعه .

ولست أنسج حديثي هذا من خيال يتوهم كما يشاء . بل إنني أنقل بإيجاز شديد ، وبعد اختصار لحقائق الأمور ، وتصغير لصورها إلى أجزاء أجزائها ـ : أنقل صورة الحياة القائمة اليوم في كل من ربوع أوروبا وأمريكا . يعلم هذا كل من له زاد من الثقافة والدّراية ، لأحوال العالم وأوضاعه اليوم .

وإلاّ فمنذا الذي يجهل أن الإحصائيّات التي تتكرر كل عام عن أعداد المنتحرين في الولايات الأمريكية تتزايد عاماً إثر عام ، وأنه وباء استشرى في صفوف الأثرياء والمترفين والمثقفين أكثر مما يظهر في بيوت الفقراء والجهّال والعاطلين .

ومن الذي يجهل أن أزمة الهيبّيين والمتشرّدين ، وجمعيات المجرمين المحترفين ، وأرباب الشذوذات النفسية والجنسية ، وهستيريا الفلسفات الجنونية البعيدة عن ضوابط المنطق والعقل ـ : من الذي يجهل أن أزمة انتشار هذه الفئات واتّساع عدوانها ، إنْ هي إلاّ بعض من آثار الضياع عن معرفة حقيقة الذات ، وهوية العمر الذي يتمتع به الإنسان ، وعن معرفة مصدره ومنتهاه وعلاقته بما سيفجأ الإنسان بعد موته من حقائق وأحداث !!..

ومن الذي يجهل ـ لو أحبَّ أن ينصف ولا يتجاهل ـ أن من شأن هذه المآسي التي هي آثار طبيعية للذي قلناه وأوضحناه ، أن تقوض مدنية الغرب وحضارته من أساسها ، وأن تستعجل الزمن قدوم يوم تنظر فيه إلى تلك البلاد والديار ، فلا ترى عليها من مظاهر هذه الحضارة إلاّ الآثار والذكرى ، ولا تسمع من بقايا ضجيجها سوى الأصداء .

ويا عجباً !.. هل الحضارة في أهم ما ينبغي أن تمتاز به من الفوائد إلا أداة لتحبيب الحياة إلى الإنسان . ووصْل ما بينهما برباط الأنس والابتهاج .. ولكن ها هي ذي تنفّر أهليها من الحياة بدلاً من أن تشوقهم إليها وترغبهم فيها . بل ها هي ذي وسائل الانتحار تتطور وتتحسن ، وها هم أولاء اللاهثون وراء المزيد من المال ، يتنبهون إلى إمكان استغلال موارد ماليّة جديدة ، من وراء اختراع وسائل حديثة ، لطيفة ، ومريحة للتخلص من الحياة !.. بل إن حديث الناس بعضهم لبعض عن الانتحار ، غدا شيئاً مألوفاً لا يثير أي غرابة أو اشمئزاز ، ولا يقبل في باب اللياقة ، أي تدخل أو اعتراض !..

تقول السيدة إميلي براملت ، وهي تروي موجزاً عن قصة حياتها وآلامها النفسية ، قبل أن تهتدي إلى ملاذ الإسلام وهديه :

« .. لقد ذهبتُ إلى الطبيب النّفساني التابع للجامعة ، فقالت لي الممرضة : إن مواعيده قد مُلِئَتْ لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم سألَتْ : هل أسجِّل اسمك في الدور ؟ فقلتُ لها : لا تسجِّلي . فإما أن تتغير الظروف التي لا أطيقها ، وإما أن تُحلَّ المشكلة عن طريق الانتحار !.. فكانت ممتنّة لهذا التّسهيل مني ، لأن الطبيب مشغول جداً »[1] .

شيء طبيعي جداً (كما ترى) أن تسمع الممرضة من فتاة في ريعان الشباب عزمها على الانتحار دون أن تبدي أي اهتمام أو تقوم بأي استفسار . وليس في الأمر ما يدعو إلى أي دهشة . بل لعل الممرضة شعرت أنه ليس من اللياقة أن تتدخل فيما ليس من شأنها وتسألها : لِمَ ؟ لذا لم تشعر إلا بواجب تقديم الشكر والامتنان لها ، أنْ حلَّت لها المشكلة ، وأخرجتها ـ في مجال اللياقة الأخلاقية التي يجب أن تعامل بها الزبائن ـ من مأزق حرج !!

فهذا الوباء النفسي المذهل ، الذي ملأ ديار الغرب بالعيادات النفسية ، وجعل

(١) انظر كتاب (آمنت بربكم فاسمعون) لإميلي براملت ، التي أسلمت وسمّت نفسها (أم محمد) ص ٧١ .

التحول إلى مهنة التطبيب النفسي ، أيسر سبيل إلى أعظم ثروة ـ: إنما هو ثمرة طبيعية لضياع أولئك الناس عن معرفة حقيقة هذه الحياة ، وعن إدراك مصدرها ومنتهاها ، معرفة مطابقة للحقيقة والواقع .

وهذا الوباء النفسي ، هو الذي يفسِّر خضوع كثير من الناس في تلك المجتمعات ، لدين لا يسايره العقل ولا يؤيده العلم . إذ إنهم يرون في الخضوع له ما يشبه المسكّن لآلامهم واضطراباتهم النفسية ، حتى وإن ظلت عقولهم محجوبة عن فهمه والاقتناع به .

بيد أن الاستسلام لدين لا يتَّفق معه العقل ، مبعث لمشكلة نفسية واجتماعية أخرى ، يطول شرحها والحديث عنها . فلذلك انشطرت المجتمعات الغربية تجاه ذلك إلى قسمين : قسم يتمثل فيمن فضلوا الخضوع النفساني للدين ، حتى وإن رفضه العلم والعقل ، وهم الذين يُسمَّون هناك الاعتقاديين . وقسم يتمثل فيمن فضلوا البقاء مع مقتضيات المنطق والعلم ، حتى وإن اقتضاهم ذلك التضحية بطمأنينة الدين وفضله . وهم الذين يُسمَّون عندهم بالعلميين .

ومن صراع ما بين هذين الفريقين ، ظهرت مذاهب اجتماعية وفلسفية شتى . كالمذهب الذرائعي ، الذي رفع لواءه وليم جيمس[1] ، وكالمذهب الوجودي الذي قاده جان بول سارتر ، وكالمذاهب الماركسية المتنوعة التي اتخذت مؤخراً أشكالاً فكرية واقتصادية شتى .

وهذه المذاهب ، في مجموعها ، تعبير دقيق عن هذه المشكلة النفسية الخطيرة ، التي تعصف بالمجتمع الغربي أجمع ، وليست بحال من الأحوال تعبيراً عن أيّ حلّ لها .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فتلك هي الآثار الحضارية ، التي تركتها الثورة القرآنية ، في نطاق

(١) عالم نفساني ، وأستاذ علم النفس بجامعة هارفرد بأمريكا . وصاحب كتاب الذرائع ، وإرادة الاعتقاد .

تعريفه الإنسان على حقيقة هذه الحياة التي يعيشها ، رأيناها واضحة نيّرة من خلال المجتمع الإسلامي وعصره الذهبي .

وهذه هي الآثار الحضارية الأخرى ، التي جاءت نتيجة ضلال الإنسان عن تلك التبصرة القرآنية ، وأثراً من آثار جهله لهوية حياته وحقيقة عمره الذي يتمتع به ، رأيناها هي الأخرى ماثلة بمآسيها وآلامها في المجتمعات العربية التي تعيش اليوم ـ بكل تأكيد ـ نهاية عمرها الحضاري .

وعليك أن تعلم بعد هذا ، بطبيعة الحال ، أن الشعوب الإسلامية ، بمقدار ما تتعرض لهذا الضلال ، الذي يعصف بالمجتمعات الغربية ، تائهة عن تبصرة هذا الكتاب الرباني ، يتسلل إليها من ذلك المرض ، بل الوباء النفسي ، ما يتكافأ مع قدر ضلالها الذي تنغمس فيه ، وبمقدار ما تقترب إلى ضياء هذه التبصرة القرآنية ، وتتشبع به ، تنال بنسبة ذلك حرزاً ووقاية من تلك الآفات المهلكة .

فانظر ... وقس ... وحلل الظواهر والأسباب ... وتأمل حالة الدول الإسلامية وشعوبها ، قديماً وحديثاً ، تجد الأمر تابعاً بدقة لهذا المقياس ، ولكن مع ملاحظة واحدة : هي أن تأخذ بعين الاعتبار مسألة موقف الإنسان من الكون الذي يعيش فيه ، وحديث القرآن له في ذلك .

وهذا ما سنباشر الحديث عنه فوراً بتوفيق الله .

مَاهُوَ ٱلْكَوْنُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

يتحدث القرآن عن الكون[1] حديثاً مسهباً ، من جوانب متعددة .

فهو يعرّفنا ، قبل كل شيء ، من الكون ، على صفحة نقشت عليها براهين وجود المكوّن ودلائل وحدانيته ، نقشاً يتبيّنه العالم والجاهل ، والأمي والقارئ .

ثم يلفت نظرنا إلى أنه جملة مخلوقات ومظاهر ، سُخِرّتْ لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ورعاية أسباب حياته ورفاهيته .

ثم ينبهنا إلى أن هذه المكونات مع ذلك مظاهر أخاذة خادعة ، ويحذّرنا من الانخداع بها والركون إليها .

ولكنه يعود فيدفعنا إلى استخدامها والاستفادة منها ، ويبصرنا بأنها ذات أهمية لإقامة أسباب عيشنا وترسيخ مجتمعنا ، ويحذرنا من تجنبها أو التحرج من التمتع بها .

تلك هي خلاصة عن الجوانب التي يتناولها القرآن من حيث الكون ، بالشرح والبيان ، فلنبدأ بتفصيل هذا الإجمال ، وتحليل قرارات القرآن بالنسبة لكل من هذه الجوانب على حدة ، على أن نتحدث بعد ذلك عن صلة هذه الجوانب بعضها ببعض ، وعن وجه التكامل والتناسق بينها ، ثم عن أثر معرفة الإنسان لذلك كله في تبصيره بالجادة المثلى إلى إنشاء الحضارة الإنسانية الراسخة .

☆ ☆ ☆

إنّ أهم ما يلفت القرآن نظرنا إليه ، من حقيقة هذه المكونات المحيطة بنا ، هو أنها

---

(١) الكون هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، فهو بمعنى المكوّن ، والمقصود به كل ما عدا الإنسان من المظاهر الكونية التي نراها من حولنا .

لسان ناطق وبيان قاطع ، ينادي نداء يفهمه كل ذي عقل وفكر ، بأن هـذا الكون من صنع صانع وتـدبير مـدبر ، فهو عنوان جليّ بـارز على وجود هـذا المكون ووحـدانيتـه ، وعلى أنه متصف ـ بمقتضى ذلك ـ بسائر صفات الكمال مبرأ عن جميع صفات النقصان .

ذلك لأنك تتأمل هـذه المكونـات ، فتراهـا منطويـة على أبرز مظـاهر الحكمـة في الإبداع ، وعلى أدق معاني التدبير الهادف في علاقة ما بينها ، وهما ، فيما يجمع عليه علماء الفلسفـة والحكمـة والمنطق ، من أبرز مستلزمـات وجود الإرادة والقصـد ، وهل تتحقق إرادة بدون مريد أم هل يتحقق قصد بدون قاصد ؟

والآيات التي تلفت أنظارنا وأسماعنا إلى بيان الكون هذا ، كثيرة ومتنوعة ، نذكر منها هذه الآيات :

ـ ﴿ قُلِ انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأَرضِ ﴾ [يونس : ١٠١/١٠] .

ـ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّـذينَ كَفَروا أَنَّ السَّمواتِ والأَرضَ كانَتـا رَتْقـاً فَفَتَقْنـاهُما ، وَجَعَلْنـا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلا يؤمِنونَ ، وَجَعَلْنَا في الأَرضِ رَواسِيَ أَن تَمِيـدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنَـا فِيهـا فِجـاجـاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهتَـدونَ . وَجَعَلْنَـا السَّماءَ سَقْفـاً مَّحْفوظـاً ، وَهُم عَن آيـاتِهـا مُعْرِضونَ . وَهوَ الَّـذيْ خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهَـارَ والشَّمسَ والقَمَرَ ، كُلٌّ في فَلَـكٍ يَسْبَحونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠/٢١ ـ ٣٣] .

ـ ﴿ إِنَّ اللهَ فـالِـقُ الْحَبِّ والنَّـوى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مَنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذلِكُمُ اللهُ فأَنّى تُؤفَكُونَ . فالِقُ الإِصْبـاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنـاً والشَّمس والقَمَرَ حُسْبانـاً ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ . وَهوَ الَّـذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَـدوا بِهـا في ظُلُماتِ الْبَرِّ والبَحْرِ ، قَد فَصَّلْنا الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥/٦ ـ ٩٧] .

فأنت ترى أن هذه النماذج الكونية سيقت في هذه الآيات مساق الاستدلال بها على وجود المكون جلّ جلاله . ومناط الاستدلال بهـا على ذلـك ـ كما يلفت القرآن نظرنـا ـ

هو ما يلاحظ من أنها تؤدي في حياة الإنسان عللاً غائيـة جليّـة لكل ذي بصيرة وفكر ، وأنت تعلم أن العلة الغائية لا تصدر إلا عن القصد والتدبير ، والربط والتقدير .

والآيـات التي سيقت في كتـاب الله هـذا المسـاق ، كثيرة ، كما أوضحنـا ، ولكن لا يعنينا أن نتوسع في الاستدلال بها ، والحديث عنها في هذا الصـدد ، إذ هي ممـا يجـدر تفصيل القول فيه عند الحديث في الأمور الاعتقاديـة وعرض البراهين على وجود الله عز وجل .

ولكن لا بـــدّ أن نلفت النظر ، إلى أن تثبيت اليقين بـوجـود الله عـز وجـل ووحدانيته في عقل الإنسـان وفكره ، ـ سواء أكان ذلـك بـالبراهين الكونيـة أو البراهين العلميـة الأخرى ـ هـو الخطـوة الضروريـة الأولى على طريـق السعى لتكـوين الأسرة الإنسانية السليمة ، أو الحضارة الإنسانية المثلى إن شئت أن تسميها كذلك .

فمن دون هذه الخطوة الأساسية ، التي تعدّ بالنسبة إلى ما يليها بمثـابـة الجـذور من الشجرة ، لا يستقيم شيء من الخطوات أو المراحل التـاليـة على أي نحو مفيـد ، وسنجـد أدلة ذلك فيما بعد .

إذ من الطبيعي أن الإنسان لن يلقي أذناً صاغيـة إلى التعليمـات التي يتلقـاهـا عن هويّته ، وحقيقة العمر الذي يتمتع به ، وكيفية استفادتـه من المكونـات التي حولـه على الـوجـه الصحيـح ـ : إلاّ إذا وقر في نفسـه واستقر في عقلـه أن الـذي يلقي إليـــه هـــذه التعليمات إنما هو خالق هذا الكون كله رب العالمين .

ولكي يوقن بـذلـك ، لا بـدّ من أن يستيقن أولاً وجود الله ووحـدانيتـه ، فـاقتضى الأمر ، من أجل ذلـك ، أن تكون فـاتحـة الحـديث القرآني عن الكـون لفت النظر إلى ما ارتسم عليـه بجلاء لا مزيـد عليـه ، من براهين وجود الله عز وجل ، لكل ذي بصيرة حرة وعقل سليم .

ثم إن القرآن ينقلنا ، بعد ذلك ، إلى بيان آخر عن الكون ، يلي البيان الأول في الأهمية والترتيب .

إنه ينبه الإنسان إلى أنّ جل ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره ، مسخّر من قبل الله عز وجل ، لخدمة الإنسان ، وتدبير أسباب عيشه ، وتحقيق شروط رفاهيته وأمنه ، وإلى أن الله تعالى قد أقام بينها وبين الإنسان نسباً من الفكر والعقل ، فهي ليست مستغلقة على النظر والفهم ، بل خاضعة في معرفة كلياتها ودقائقها لمجهر التأمل والبحث .

وهو يلفت النظر ، من خلال ذلك ، إلى أن أكثر هذه المكونات خاضع للتطوير والتحوير حسب ما يقتضيه السير مع مصلحة الإنسان ، إذا ما اتجه الإنسان بما أوتيه من فكر وقدرات إلى ذلك ، فلا عليه إذن أن يسعى سعيه للتأمل فيها والاستفادة منها وإدخال ما قد يراه مناسباً من أسباب التطوير عليها .

تأمل في هذه الآيات ، وهي طائفة يسيرة من حديث القرآن لنا عن الكون من هذا الجانب :

- ﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمواتِ ومَا فِي الأرضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ، وَمِن النَّاسِ مَن يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلمٍ وَلا هُدًى ولا كِتابٍ مُّنيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠/٣١] .

- ﴿ هوَ الّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَّكُم ، مِّنهُ شَرابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسِيمونَ . يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأَعْنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ ، إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ . وَما ذَرَأَ لَكُم في الأرضِ مُختَلِفاً ألوانُهُ ، إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠/١٦ - ١٣] .

ـ ﴿ وَجَعَلْنا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَينِ ، فَمَحَونا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُم وَلِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ، وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلناه تَفصيلاً ﴾ [الإسراء : ١٢/١٧] .

ـ ﴿ أَوَلَم يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدينا أَنْعاماً فَهُم لَها مالِكُونَ ، وَذَلَّلْناها لَهُم ، فَمِنْها رَكُوبُهم وَمِنْها يَأكُلونَ ، ولَهُم فيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشكُرونَ ﴾ [يس : ٧١/٣٦ ـ ٧٣] .

ـ ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ، فامشُوا في مَناكِبِها ، وكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشورُ ﴾ [الملك : ١٥/٦٧] .

ـ ﴿ وَلَقَد مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرضِ ، وَجَعَلْنا لَكُم فيها مَعايِشَ ، قَليلاً مَّا تَشْكُرونَ ﴾ [الأعراف : ١٠/٧] .

تأمل ، في كلمات ثلاث ، تدور مع التعبير القرآني ، في هذه الآيات عن علاقة ما بين الإنسان والمكونات التي من حوله ، وهي : التسخير ... التذليل ... التمكين ... تجدها تعبّر فيما يقرره علماء اللغة العربية ، عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام .

فهي تقرر بأبلغ وسائل التعبير والبيان ، بأن الله تعالى قد أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان أيما إخضاع ، وحسبك من ذلك أنها تعكف على وظائف كونية شتى ، كلٌّ حسب ما أقامه الله فيه وهيأه له . ولكن هذه الأعمال والوظائف المختلفة كلها ، تدور على محور المصلحة الإنسانية ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وانظر إذا شئت في نظام الأفلاك وحركتها ، والكواكب مع أبراجها ، والأرض ودورانها ، وتأمل في السحب والمياه والبحار ، والتراب والدواب والأنعام ، وفي مسرى الرياح ونمو النبات والأشجار تجدها جميعاً ، عاكفة على خدمات نوعية شتى ، من شأنها أن تنسج مقومات الحياة الآمنة ، والعيش الرغيد للإنسان .

وهي تقرر أيضاً أن الله عز وجل ، قد أذلّ هذه المكونات لمعرفة الإنسان ، ثم أمكن القدرة الإنسانية من التحكم بها والتطوير لها واستخراج الجديد من وجوه الفائدة منها . إذ إنك لا تقول : إن فلاناً تمكن من كذا ، إلاّ إذا امتدت قدرته إلى التحكم به واستغلاله على الوجه الذي يريد .

فالآيات تنصّ إذن ، بدلالة لا تقبل الريب ، على أن الله تعالى أخضع هذه المكونات لكلتا القدرتين : العضلية والفكرية في الإنسان ، وأذلّها لكثير من آماله ومطامحه .

ألا ترى إلى كلمة « ذلولاً » في قوله عز وجل ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ﴾ وهي صيغة مبالغة بمعنى مذلَّلة : كيف صورت الأرض ، وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان ، بكل ما في باطنها من ذخر ، وبكل ما على ظاهرها من خير ، ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع !.

وإلى كلمة « ذللناها » من قوله تعالى ﴿ أَوَلَم يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِّمّا عَمِلَتْ أيدينا أَنعاماً فَهُم لَها مالِكُون ، وذَلَّلناها لَهُم فَمِنْها رَكُوبُهم وَمِنها يَأكُلونَ .. ﴾ كيف صورت إخضاع الله هذه الحيوانات المختلفة لحاجات الإنسان ومنافعه ، وذلك على الرغم مما تتمتع به من قوة تجعلها تستعصي على الخضوع والانقياد ، لو أن الله أمكنها من استعمال هذه القوة في مجابهة الإنسان !..

وأنت لا تستطيع أن تتصور المدلول العظيم لكلمة « ذللناها » في هذه الآية ، إلا عندما تعلم أن معظم هذه الحيوانات : كالبغال ، والأبقار ، والخيول ، يتمتع بقوة تفوق التي يتمتع بها كثير من السباع الهائجة الضارية ، ولكنها تنقاد ، مع ذلك ، للطفل الصغير ، وتخضع للزمام الذي يقودها الإنسان منه إلى حيث يشاء !..

وهكذا يُطمئِنُ اللهُ الإنسان ، من خلال تقريره هذا عن المظاهر الكونية التي من حوله ، ومن خلال تبصيره بها وتعريفه عليها : إلى أن هذه المكونات المختلفة ليست إلا خدماً وحشماً له ، فهي تنتظر إشارته ، وتسعى في رعايته ، فلا يستوحشن منها ، بسائق جهل أو بدافع استعظام أو استغراب ، وإن له في هداية العقل الذي يتمتع به ، والعلوم التي هي تحت سلطانه ، ما يبدد عنه آثار أي وحشة أو ظلام أي غاشية .

وبهذا تعلم أن علاقة ما بين الإنسان وهذه المكونات ، لم تكن يوماً ما ، علاقة تحدٍّ وصراع ، مهما أوغلت بخيالك في الماضي البعيد ، واقتحمت بفكرك مع الإنسان إلى أغوار تاريخه السحيق ، فما صارعها الإنسان في أي عهد من الدهر ، ولا صارعته ، وما حجب عنها يوماً ما بغير حجاب غفلته وجهله ، على أنه لم يكن محكوماً عليه يوماً ما بحجاب هذه الغفلة والجهل ، بل كان ولا يزال أمر هذا الحجاب ، إرخاء وتمزيقاً ، عائداً إليه هو ، بقطع النظر عن عقيدته ودينه .

ولذا ، فليس لما يعبّر به بعض السطحيين أو بسطاء الباحثين ، من كلمة « تحديات الطبيعة » أيّ مدلول في ميزان العلم أو الوقائع والأحداث التاريخية ، فلا الإنسان عاش يوماً ما مجرداً عن مزية العقل والفكر[1] ولا التي يسمونها « الطبيعة »

---

(١) يقول الأسطوريون : إن الإنسان عاش دهراً طويلاً ، لا يتمتع بأي فكر أو عقل ، وأنه كان خلالها متوحشاً يأوي إلى الكهوف ، ويعيش في الغاب ، ويتقلب مع الحيوانات المختلفة ، ثم إنه انخرط في بوتقة المجتمع الإنساني ، فأورثه ذلك بعد حين (بواسطة عوامل الاحتكاك والمشاعر التي تنبهت في كيانه) عقلاً يفكر به ولغة ينطق بها !..

فجرد نفسك ما استطعت من نعمة العقل والمنطق ، ثم قل لي أفتستطيع أن تهضم هذه الأسطورة وأن تلزم نفسك بالاقتناع بها ؟!..

لماذا لم تنخرط الحيوانات المختلفة هي أيضاً في مجتمعات لها ، حتى تكسب هي الأخرى العقل والفكر واللغة ، مادام أنهم جميعاً كانوا يعيشون في مستوى واحد من الصفات والإمكانات ؟ ثم ها هي ذي الحيوانات الأليفة تنخرط في مجتمعات إنسانية عاقلة ، وتظل على ذلك طول حياتها ، فما لها لا تكتسب من ذلك ثقافة ولا علماً ؟... ومع هذا كله فمن الذي يجهل أن إنشاء المجتمع المتعاون يتوقف على أعمق درجات الفكر والذكاء لدى الإنسان ، بقدر ما يتوقف على غريزة دقيقة لدى الحيوانات الأخرى ؟ =

وقفت تجاه الإنسان بأي تحد أو تمرد . بل النسب قائم ومتين بينهما منذ أن أبدع الله كلا الخليقتين . وليس ثمة إلا شرط واحد لتغذية هذا النسب القائم بينهما واستخراج ثماره ، ألا وهو إعمال الفكر والعقل ، واستخدام وسائل البحث والعلم .

على أن هذا الشرط ، ليس وقفاً بدوره على مؤمن من دون كافر ، أو صالح دون فاجر بل هو عام شامل للناس جميعاً بقطع النظر عن أديانهم ، وعن قربهم أو بعدهم عن الله عز وجل .

فكل من مزق حجاب الجهل بينه وبين هذه المكونات ، أو ما يسمونه هم بالطبيعة ، بواسطة أسباب الدراية والعلم ، خليق به أن يستدر الكثير من خيراتها ، وأن يقف على الكثير من أسرارها .

وكل من قبع تحت خباء جهله ، وأغمض العين عن النظر ، وأوقف العقل عن التأمل ، جدير به أن يبقى في غفلة عن الدنيا التي تطيف به ، أياً كانت نحلته ودينه .

☆ ☆ ☆

غير أن البيان الإلهي استثنى طائفة من الظواهر والأنظمة الكونية ، عن عموم هذه المسخرات والمذللات (على حد التعبير القرآني) بين يدي الإنسان . وأكد لنا أن هذه الطائفة المستثناة باقية وستبقى بعيدة عن أن تطولها يد أي تبديل ، مستعصية على كل أسباب التغيير أو التطوير ، فهي إذن لا تدخل في جملة ما قد ذلله للإنسان ، وأخضعه لإمكاناته الفكرية أو قدراته العضلية .

☆ من ذلك ظاهرة الموت التي جعلها الله تعالى قضاء مبرماً في حق كل من دخل في عالم الأحياء فليس من سبيل إلى التحرر منها أو القضاء عليها ، مهما كانت الوسائل

= والعجيب أن يتشدق هؤلاء الأسطوريون بعد هذا كله بألفاظ العلم ، وأن ينعتوا أمثالنا بالغيبيين !... واقرأ تفصيل هذا البحث في كتابنا نقض أوهام المادية الجدليه ص١٤٦ فما بعد .

والأسباب ، وليس من سبيل إذا نزل الموت بساحة إنسان إلى صرفه أو تأخيره عنه بأي طريقة أو علاج [1] .

وحسبك لتدرك مدى شمول هذا القرار الرباني أن تتأمل قوله تعالى : ﴿ أَيْنَما تَكونوا يُدْرِكُّكُم الْمَوْتُ وَلَو كُنْتُم في بُروجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨/٤] .

☆ ومن ذلك ما قد قضاه الله عز وجل لحكمة يعلمها من حجب حقيقة الروح عن مدارك الإنسان وعلمه ، مهما ابتغى إلى ذلك من سبيل ومهما أوتي من العلوم والأسباب ، وحسبك دلالة على هذا قوله تعالى :

﴿ وَيَسْألونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ومَا أوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] .

وأنت تعلم أن علماء الحياة حاولوا جاهدين أن يعلموا شيئاً عن خبيئة الروح أو جذور الحياة وبذلوا لذلك كل ما في وسعهم ، وجندوا له كل علومهم وأجهزتهم ، فانقلبت إليهم جهودهم كلها كليلة خاسئة ولم تأت من سعيها بشيء .

وليس الغريب أن يعترف علماء الحياة واحداً إثر آخر ، بعجز العلم عن الخوض في قضايا الروح والحياة ، ولكن الأغرب أن يقرّ « إنجلز » زميل ماركس وشريكه في وضع الفلسفة المادية الجدلية ، التي أُرغمت على القول بأن الحياة من مادة نشأت وإليها تعود ، بما يناقض فلسفته هذه ويحطمها تحطيماً ، فيقول ما نصه :

« إنه ـ يقصد العلم الطبيعي ـ لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى ، وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد في إنتاج الهيولى البسيطة أو

(١) لا يدخل في شيء من هذه الطرق ، استعمال تلك الأجهزة التي تصل إلى القلب ، فتطيل من حركته ونبضه فإن استمرار حركة القلب بهذه الطريقة الآلية لا تسمى حياة بوجه من الوجوه ، ولا يتمتع صاحبها بشيء من ثمرات الحياة من شعور أو إحساس أو إدراك أو نحو ذلك ، غير أن الحياة الحقيقية لا تزال في بعض الأحيان باقية ، فتأتي عملية ضخ القلب بهذه السبل الصناعية نوعاً من أنواع العلاج ، قد يكون له جدواه وأثره ، ما دامت شعلة الحياة الأصلية باقية .

الأجسام الآحينية الأخرى ، من العناصر الكيميائية ، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة »[1] .

☆ ومن ذلك تلك السنة الكونية التي أبرمها الله عز وجل ، سواء فيما يتعلق بشخص الإنسان وكيانه ، أو فيما يتعلق بالظواهر الكونية التي من حوله ، مما أوضح الله في القرآن ثباته مع الزمن ، وتأبّيه على كل محاولات التطوير والتغيير ، مثل السنة الإلهية في سير الحياة الإنسانية من ضعف إلى قوة فضعف وشيبة . ومثل القانون الرباني الذي أخضع به الإنسان الحاجة الماسة إلى نبت الأرض وقطر السماء وضروع الأنعام . ومثل قانون حركة الكواكب والأفلاك ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الشمس أو القمر أو الأرض ، مهما أوتي علماً ، ومهما ابتغى إلى ذلك من سبيل ، نعم يستطيع أن يتحكم في طاقة الشمس دون ذاتها ، وأن يستعمل علمه ومداركه في تطويرها وتوسيع سبل الفائدة منها ، وذلك هو المقصود بتسخير الشمس للإنسان في الآيات التي مر ذكرها .

ومن الدلائل على هذا ، آيات من كتاب الله عزّ وجل ، منها :

ـ ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤/٣٠] .

ـ ﴿ وَمَن نَعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الْخَلقِ أَفَلا يَعْقِلونَ ﴾ [يس : ٦٨/٣٦] .

ـ ﴿ لا الشَّمسُ يَنبغَي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَر وَلاَ اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحَون ﴾ [يس : ٤٠/٣٦] .

ثم إن هذا الاستثناء الذي يوضحه البيان الإلهي من عموم الآيات التي تتحدث عن تسخير المكونات للإنسان ، ينطوي على تنبيه للإنسان إلى أن الإذلال الذي أخضع الله به المكونات لمصلحة الإنسان وسعيه ، إنما رتّبه وفق سنن ثابتة ونظام لا يتبدل ،

(١) أنتي دوهرنغ لإنجلز ، ترجمة فؤاد أيوب ص ٩٠ .

فلا يأتي التسخير والتمكين والتذليل إلا ضمن سلطان هذه السنن الثابتة ، وبعد الانضباط بقيود الأنظمة الراسخة ، وذلك كي يكون الإنسان على بينة من السبل التي يسلكها ، عند سعيه ومحاولاته ومغامراته التي يقوم بها ، حتى لا يصطدم بتضاريس هذه الأنظمة الثابتة ، فيعالجها ويكدّ نفسه وفكره في شأنها دون جدوى .

وإنها لحكمة كبيرة من البيان الإلهي ، أن يعرف الإنسان من الكون على الثوابت التي فيه ، والتي لا جدوى من محاولة تغييرها أو زحزحتها ، وعلى المتغيرات التي أخضعها الله تعالى لقدرات الإنسان وعلمه ووجود الحيلة لديه ، وذلك كي لا يطول عليه الوقت بدون موجب ، ولا يذهب جهده هدراً عندما يريد أن يسعى سعيه إلى تسخير هذه المكونات لما هو بصدده ، من إقامة الحضارة الإنسانية المثلى .

وقد كنت أقرر هذه الحقيقة مرة في بعض المؤتمرات ، وأوضح هذه النواميس الكونية الثابتة في قرار الله تعالى وحكمه . فقام أحدهم يقول :

إن من شأن هذا الكلام أن يثبط الناس عن المحاولة ... وأن يقيد عزائمهم عن الاتجاه إلى الأنشطة العلمية ، وعن الدخول في ميادين التجربة والبحث !..

فهل الأمر في الحقيقة كذلك ؟

إن الواقع (كما أوضحت آنذاك) أن هذه القرارات القرآنية المبرمة عن النواميس الكونية ، إنما تبعث المرتاب على التجربة وتدفعه إلى المحاولة من خلال كونها تحديات لأصحاب الريب والشكوك ، على نقيض ما يتوهم هذا القائل وأمثاله .

بل إننا نقول : إن الذين يسمعون هذه القرارات القرآنية ، أحد فريقين :

إما فريق جاحد ، فهؤلاء يهيجون ويندفعون إلى النظر والتجربة أملاً في أن يكسروا طوق هذا التحدي القرآني ، ليعلنوا بذلك للناس أنهم من كفرهم وجحودهم بالله على حق !..

وإما فريق موقن ومصدق بالله عز وجل ، فالشأن في هؤلاء أن ينشدوا مزيداً من الطمأنينة في الإقبال على النظر والبحث والتجربة ، ومعاذ الله أن يكون ذلك منهم دليل جحود أو ارتياب .

وقد سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى ، وقد علمنا أنه لم يكن يعاني من أي شك أو ارتياب ، ولكنه كان ينشد بذلك مزيداً من الطمأنينة[1] ، وقد استجاب الله دعاءه وأراه تطبيق قراره الغيبي ، وقد كانت هذه الاستجابة دليلاً على أن تطلع إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى معرفة الكيفية التي يتم بها إحياء الموتى ، ليس مخالفاً لليقين الغيبي الذي لا بدّ منه .

وقد علمت أن تأكيد القرآن بأن أحداً من الجن والإنس لن يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن ولا بمثل سورة منه ، لم يثبط العرب عن محاولة الإتيان بمثله ، ولم يمنعهم من التجربة ، بل الذي تم عكس ذلك تماماً ، فقد حاولوا وسعوا جاهدين ... ولولا سعيهم هذا لما ظهر لهم صدق التحدي الإلهي ، ولما ثبت لهم فعلاً أن كلا الثقلين من إنس وجن ، لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وهكذا ، فليطمئن كل باحث وعالم إلى أن شيئاً من هذه الآيات التي تقرر ثبات النواميس الكونية واستعصائها على أي محاولة للتغيير والتطوير ، بل استعصاء بعضها حتى على الدراية والفهم ، أقول : إن شيئاً من هذه النصوص لا يأمر الناس بأن يغلقوا معاهد البحث والنظر ، ولا ينهاهم عن مواصلة تجاربهم ومحاولاتهم العلمية على اختلافها ، كما لا يأمرهم بأن يغضوا الطرف عن هذه النواميس وأن يسدلوا عليها حجاب الخشية والرهبة ، أدباً واحتشاماً مع قرارات الله تعالى في حقها ، بل العكس هو

---

(١) الطمأنينة هي التخلص من إلحاح الفكر وتساؤلاته : كيف يتم هذا ، وعلى أي نحو ؟.. ولا يشترط أن يكون مبعث تساؤلاته شكا أو جحوداً ، بل هو بالنسبة للمؤمن بالله عز وجل ، لا يزيد على كونه تطلعاً عقلياً إلى معرفة كيفية وقوع أمر غريب .

الصحيح ، عليهم أن يبحثوا ... ولهم أن يقلبوا ويجربوا ... وأن يحاولوا معرفة مدى احتمال أن يكون هذا الكلام غير مطابق للحقيقة .. فإن ذلك خير ما يحملهم أخيراً على تصديق بيانات الله تعالى وعلى اليقين بأنها من كلام الله عز وجل ، إن كانوا قبل ذلك شاكين أو منكرين ، وهو خير ما يزيد إيمانهم رسوخاً ، ويبعث فيه روح الطمأنينة إن كانوا قبل ذلك مصدقين وموقنين .

☆ ☆ ☆

فإذا تعرف الإنسان على هذه المكونات التي يراها من حوله ، وأدرك صلة ما بينه وبينها ، وأيقن بأن الله عز وجل ، ما أقامها إلا في خدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ، وأنها لذلك مذللة ومسخرة له على أتم وجه . فإن القرآن يبدأ فينبهه إلى حقيقة قيمتها وإلى مدى أهميتها ، ويحذره من أن ينخذع بها أو يعرض عنها ، فيضعها بسبب ذلك فوق مرتبتها الحقيقية أو دونها .

وإنك لتنظر فتجده يؤكد بأن معظم هذا الذي يبرق في الأعين مرآه ، وتستهوي النفس لذته ، إنْ هو إلاَّ سراب باطل ، وظل زائل ، وخيال عابر : وأنه أشبه بالرؤى التي يمرّ بها النائم ، يظن وهو في نومه أنه أمام حقائق يمارسها ويتقلب فيها ، فما هو إلا أن يستيقظ حتى يعلم أنه كان في حلم لا حقيقة له .

وإن القرآن ليفيض بالآيات التي تتفنن في إبراز هذه الحقيقة ، وتبالغ في تحذير الإنسان من الاغترار بالدنيا ومظاهرها ومغرياتها ، وإليك طائفة من هذه الآيات :

- ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنينَ والقَناطيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّة والْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ والأَنْعامِ والْحَرْثِ . ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنيا واللهُ عِندَهُ حُسْنُ المآب . قل أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيرٍ مِّن ذلِكُم لِلَّذينَ اتَّقوا عِندَ رَبِّهِم جَنَّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدين فيها وأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوانٌ مِّنَ اللهِ واللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ ﴾ [آل عمران : ١٤/٣ - ١٥] .

ـ ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذين كَفَرُوا في البِلادِ مَتاعٌ قَليلٌ ثُمَّ مأْواهُم جَهَنَّمُ وبِئسَ المِهادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦/٣ ـ ١٩٧] .

ـ ﴿ قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ والآخِرَةُ خَيرٌ لِّمَنِ اتَّقى ولا تُظْلَمونَ فَتيلاً ﴾ [النساء : ٧٧/٤] .

ـ ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِّنْهُم زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فيهِ ، ورِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وأَبْقى ﴾ [طه : ١٣١/٢٠] .

ـ ﴿ وَيَومَ يُعْرَضُ الَّذين كَفَرُوا على النَّارِ أَذْهَبْتُم طيِّباتِكُم في حَياتِكُمُ الدُّنيا واسْتَمتَعْتُم بِها فاليَومَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنتُم تَسْتَكبِرُونَ في الأَرضِ بِغَيرِ الْحَقِّ وبِما كُنتُمْ تَفْسُقونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠/٤٦] .

ـ ﴿ فما أوتيتُمْ مِّن شَيءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنيا ، ومَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ وأَبْقى لِلَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون ﴾ [الشورى : ٣٦/٤٢] .

ـ ﴿ المالُ والبَنون زينَةُ الْحَياةِ الدُّنيا والباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٦/١٨] .

ولو أنا تأملنا هذه الآيات ، ووقفنا عندها في السعي إلى معرفة الموقف الذي يجب اتخاذه من الدنيا وأسبابها ، إذن لوجدنا أنفسنا أمام ضرورة نبذها واطّراحها ونفض اليدين منها ، ولما كان يحقّ لنا أن نأخذ منها إلا قدر الضرورة وبُلْغة الحياة وسدّ الرمق .

وهو الخطأ الذي انجرف فيه بعض ممن وقفوا عند حدود هذه الآيات وظاهرها ، ولم يصلوها بما يتم بيان المقصود منها ، من آيات كثيرة أخرى ، ففسروا الزهد على غير وجهه المطلوب ، ثم تعلقوا منه بصورة لم يأت بها كتاب ولا أيدتها سنة ، إذ هجروا العمران . وانساحوا في القفر من الأرض ، واتخذوا من الكهوف مثابة لهم ، ولم يحملوا

أنفسهم مؤنة أسرة ينشئونها ، أو رزق يكدحون من أجله ، ثم راحوا يزعمون أن ذلك هو معنى الزهد الذي أمرت به تلك الآيات وأمثالها [1] ...!

فلو أن الناس جميعاً شايعوهم في هذا الفهم ، لبطل معنى الأمر الإلهي في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرضِ واسْتَعْمَرَكُم فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] ، ولعادت الأرض خراباً ، ولبطلت الحكمة من تسخير الله مكوناته المختلفة للإنسان .

فلكي لا ننزلق إلى هذا الفهم الخاطئ ، ولكي لا نقف عند شطر المعنى المطلوب : لم يقف بنا البيان الإلهي في شرح حقيقة هذه الدنيا وبيان قيمتها عند حدود هذه الآيات ، بل عاد الخطاب الإلهي فندبنا إلى التعامل مع الدنيا وهذه المكونات التي من حولنا ، ودعانا إلى مدّ يد الاستفادة منها ، بل حذرنا من التأثم من الإقدام عليها ، ونهانا من الحكم على ذلك بالحرمة ، ومن أن نستقل من عندنا بوصفه بالعصيان .

---

(١) يتضح لك من هذا الكلام أن محط الإنكار الشرعي على هؤلاء الناس ، ليس في أنهم اختاروا لأنفسهم العزوف عن المجتمع والعمران ، وفروا من الناس إلى حيث يشاؤون ، فليس من ضير في أن يميل إنسان - لطبع خاص به - إلى مثل هذه العزلة ، فيفعل ما تميل إليه نفسه . وقد كان في عصر رسول الله ﷺ ، من ينزعون إلى قريب من مثل هذه الحياة ، كأهل الصفة . غير أن هؤلاء كانوا يمرون من هذه العزلة بمرحلة يسيرة فقط من حياتهم ، ثم يعودون إلى دنياهم وأعمالهم ، ولذلك فقد كان « أهل الصفة » يتبدلون باستمرار ما بين حين وآخر ، ثم إن عملهم لم يكن تفسيراً لمعنى الزهد الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم ، ولم يكن تنفيذاً لأمر صدر إليهم من النبي عليه الصلاة والسلام ، بل كان ذلك شأناً عائداً لأنفسهم ، فهو كدورة تدريبية يمارسها من قد يشعر من نفسه أنه بحاجة إلى هذه الدورة .
ولكن محل الإنكار هنا أن بعضاً من هؤلاء الذين اعتزلوا الدنيا ، اتخذوا ذلك ديدناً مستمراً لهم أولاً ، ثم راحوا يحاولون إقناع الناس أنه العمل الذي يجب أن يجنح إليه عامة المخلصين في دينهم ثانياً ، وأنه هو التفسير الذي لا محيد عنه للزهد المطلوب شرعاً !... مع أن الزهد في حقيقته ليس يعني الفرار من الدنيا بهذه الطريقة المخالفة لقوله تعالى : ﴿ هو أَنْشَأَكُم مِّن الأرضِ واسْتَعْمَرَكُم فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] ، ولكن أن يمارس ممارسة الإنسان البصير بسمومها وترياقها ، فيلقي سمومها جانباً ، ويستعمل الترياق فيما يرضي مولاه عز وجل ، وهذا ما سيتم بيانه عندما نستعرض الطائفة الثانية من الآيات المتعلقة بهذا البحث .

ولنصغ إلى طائفة من هذه الآيات ، ولنتأمل كيف تبدو وكأنها استدراك على ماقد يفهمه الإنسان من الآيات السابقة ، وهي آيات متنوعة الدلالة ، ولكنها محصورة ضمن عموم هذا المعنى الاستدراكي الذي تلتقي جميعاً في التعبير عنه .

ـ يقول الله تعالى : ﴿ قُل مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللهِ الَّتي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ ؟ قُلْ هيَ للَّذينَ آمَنُوا في الْحَياةِ الدُّنيا خالِصَةً يَومَ القيامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢/٧] .

ففي الآية ـ كما ترى ـ استفهام إنكاري بل زجري ، يعقبه تأكيد بأن ممارسة شيء من نعيم الدنيا وملاذها ، لا تدخل في أصناف المحرمات ، وأن الله لم يمنع عباده من أن يتقلبوا فيها ويأخذوا حظوظهم منها ، ويوضح البيان الإلهي بأن الله إنما أخرج هذه المظاهر الدنيوية بأنواعها ، ليتمتع بها الناس في دنياهم ، ثم لتكون من نصيب المؤمنين يوم القيامة أيضاً ، خالصة من الشوائب والمنغّصات التي كانت ممزوجة بها في دار الدنيا .

ـ ويقول الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرضِ جَميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩/٢] ، وهذه الآية تدلّ ـ على إيجازها ـ أبلغ دلالة على المعنى الذي نحن بصدده ، ذلك أن اللام في لكم للاختصاص ، أي خلق كل ما في الأرض من أسباب العيش ومظاهر المتعة من أجل الإنسان وفي سبيل تحقيق سعادته ورخائه ، وهي من أجل دلالتها على هذا المعنى عمدة علماء الشريعة الإسلام ة في أن الأصل في الأشياء كلها الإباحة ، وإنما الحرمة صفة عارضة .

ـ ويقول أيضاً : ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُم ﴾ [المائدة : ٨٧/٥] ، والآية هنا نهي صريح عن أن يترفع الإنسان (تدّيناً) عن الطيبات التي أكرم الله بها الإنسان إذ وضعها بين يديه ليتمتع بها ويستشعر فضل الله عليه فيها ، وأسوأ من هذا أن يحكم من عنده بالحرمة على استعمال هذه الطيبات والإقبال إليها ، مع أن الله قد أباحها ، وقدّمها إلى عباده على موائد التفضل والإحسان ، وأنت خبير بأن

الإعراض عن مائدة الكريم إنما يفسر بالاستغناء عنها ، وإذا جاز هذا للإنسان تعففاً ما بين إنسان وآخر ، فإنه لا يجوز إطلاقاً عندما يكون المتفضل رب العالمين والمعرض عنه عبداً من عباده المفتقرين .

ويقول أيضاً : ﴿ هُو الَّذي جَعَلَ لَكُم الأَرضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مَناكِبِها ، وَكُلوا مِن رِّزْقِه وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥/٦٧] وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآية في معرض ما كنا بصدده من بيان إخضاع الله الأرض وما عليها لحاجة الإنسان ومقتضيات عيشه ، ولكنّ محل الشاهد الآن إنما هو ذيل الآية . وهو قوله تعالى : ﴿ فامشُوا في مَنَاكِبِها وكُلُوا مِنْ رِّزْقِه .. ﴾ وهو أمر إلهيّ صريح موجه إلى الإنسان ، بأن يقبل إلى الأرض فيستخرج منها مكنوناتها ويجني منها خيراتها ، وأن يتمتع بأرزاقها ، ولا ريب أن هذا الأمر ينطوي على النهي عن نقيض ذلك ، وهو الإعراض عن ذلك كله ، والانقطاع في أودية الحرمان[1] .

ويقول الله تعالى في معرض التنويه بحرمة الأموال وأهميتها والتنبيه إلى ضرورة حمايتها وعدم العدوان عليها : ﴿ لا تَأكُلوا أَمْوالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ إلاَّ أنْ تَكونَ تِجارَةً عَن تَراضٍ مِّنْكُم ﴾ [النساء : ٢٩/٤] ، ولولا حرمةٌ يوليها الله تعالى لتربية المال واستغلاله في تحقيق وجوه الرخاء ، وعمارة الأرض ، وتشجيع الناس أن يتعاونوا في سبيل ذلك ، لما وضع العدوان على الأموال في هذا الموضع من الأهمية والخطورة .

وقد علمت أن الله تعالى سمى الدنيا عاجلة ، وحذر من الركون إليها ، إذ قال : ﴿ مَّن كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُّريدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذمُوماً مَّدْحوراً ، ومَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُم مَّشكوراً ﴾ [الإسراء : ١٨/١٧ ـ ١٩] ، ولكن البيان الإلهي استدرك مباشرة ، كي لا يفهم

(١) يجب ملاحظة أن الأوامر والنواهي الشرعية هنا تتعلق بالجماعة ، لا بالأفراد ، أي فقد يرخص للفرد أن يعرض عن الدنيا وينعزل عنها إلى حيث يشاء ، ولكن لا يجوز اتخاذ أسباب لتعميم ذلك في المجتمع أو بين الناس ، وهذا مما يدخل في القاعدة الشرعية : ليس كل ما يرخص للفرد يشرع للجماعة .

أحد هذا الكلام على غير وجهه السديد ، فقال : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٠/١٧] ، أي ولكنّ هوانها على الله تعالى لا يستلزم أن يحرم الله عباده الصالحين منها أو يأمرهم بالبعد عنها ، بل هي مائدة مبسوطة أمام الناس جميعاً ، بما فيهم من مؤمنين وكافرين ، وإنما تتعلق الأهمية بوجه الاستفادة منها وكيفية النظر إليها .

ثم إن معاني هذه الآيات كلها تتجمع في الوظيفة التي حمل الله الإنسان مسؤولية النهوض بها ، في هذه الآية الوجيزة الجامعة : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ واسْتعمَرَكُم فِيها ﴾ [هود : ٦١/١١] ، وهل تتحقق عمارة الأرض بمعناها الحسي والمعنوي ، إلا بعد الإقبال على سائر المكونات المتنوعة من حولنا بالتسخير لها والاستفادة منها ، بأوسع معنى وعلى أتم وجه .

فقد تبين إذن ، أن تلك الآيات التي أوضح الله فيها هوان الدنيا وتفاهة مظاهرها ، ما ينبغي أن تفهم بمعزل عن هذه الآيات الأخرى التي بيّن الله تعالى فيها واجب الإنسان تجاهها .

ولكن تبيّن في الوقت ذاته أن هذه الطائفة من الآيات الأخرى التي أوضح الله فيها واجب الإنسان تجاه المظاهر الكونية وخيرات الدنيا ، وضرورة السعي نحو الاستفادة منها : ما ينبغي أن تفسّر إلاّ على ضوء تلك الطائفة السابقة من الآيات التي قد توهم العكس .

ولكن ما الحكمة من هذا المد والجزر في التحليل والبيان ؟... وكيف السبيل إلى التوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات ؟... أي كيف يتأتى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعة التامة بأن الدنيا بكل ما فيها ظل زائل وسراب باطل ووهم لا يجوز الانخداع به ، ثم يُقبل عليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ذخرها ، يبني لنفسه من ظلها وسرابها قصوراً شامخة وينشئ منها جناناً وارفة ؟!... أغلب الظن ـ فيما

يبدو ـ أن الذي يتقلب في نعيمها ويمارس لذائذها ، لا بدّ أن يركن إليها وينخدع بمذاقها ، وأن الذي يستيقن تفاهتها وضرر الركون إليها ، لا بدّ أن يعرض عنها وينفض يديه منها ، ولن يأخذ منها إلا قدر الضرورة القصوى .

والجواب : أن الحديث عن هذه الحكمة حديث طويل ، وهي بجملتها تنطوي على الحلّ الوحيد لتلك العقدة الوحيدة الكبرى التي كانت وماتزال تقف في طريق السعي إلى إنشاء مجتمعات أو حضارات إنسانية مثلى تحمل في داخلها أسباب بقائها . وقلَّ من تنبه إليها من الناس والأمم بعد ، فضلاً عن أن يتنبهوا إلى سبيل علمي صحيح لحلها ، بل قلَّ من تنبه إليها ممن درسوا المنهج الرباني إلى إنشاء المجتمعات والحضارات ، فما سمعنا من أكثرهم إلاَّ وصفاً وتصنيفاً للآثار الحضارية والعمرانية التي تركها الرعيل الأول من المسلمين هنا وهناك ... حتى غدت المؤلفات التي تتحدث عن الحضارة الإسلامية وتاريخها ـ على كثرتها وضخامتها ـ لا تُعنى منها إلا بتصوير هذه الآثار وتجميع أحاديث الإعجاب بها والإكبار لها !..

ولكن كيف قامت هذه الحضارة ؟ وبأيّ سر استقرت ثم استصلبت ؟.. ثم كيف انهارت وأَفَل نجمها ، حتى لكأننا لسنا ورّاث تلك الحضارة والأمجاد ؟!.. هذا ما لا يلفت إليه أكثر الباحثين بأيّ تأمل أو اهتمام !.

أمّا آخرون ، فيتوقفون ويتساءلون ، ولكنهم لا ينتهون من تساؤلهم إلاَّ إلى حيرة ترتسم على كلماتهم أو كتاباتهم ، وربما حاول بعض منهم أن يلتقط عللاً وأسباباً ، فوقف من ذلك عند نظرات سطحية وتحليلات جزئية مبتسرة ، لا تورث قناعة ولا تفيد عبرة ، أو غاص من ذلك في بحر من الفلسفات النظرية والتحليلات الكلامية التي لا تورث العقل إلا صداعاً ، ثم تدع الإنسان الباحث في حيرة من أمره ، فلا يدري ماذا يفعل وكيف يسير !...

ولنعد الآن إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحناه .

إن القرآن ، بهذين البيانين المتوازيين في تكافؤ دقيق ، عن المكونات التي تطوف بالإنسان ، يحلّ هذه العقدة الهامة التي طالما استعصى حلّها على الأمم والباحثين والمتخصصين بهذا الشأن ، إمّا لأنهم لم يكترثوا بها فلم يتنبهوا إليها ، وإما لأنهم لم يهتدوا إلى حلّ سليم لها ، فكان أن وصلوا من جرّاء ذلك إلى جدار موصد ألجأهم إلى ذلك الزعم السخيف الذي ينأى عنه كل من المنطق وأصول الدراية التاريخية لحياة الإنسان . وهو القول بأن الحضارات كلها تخضع للمراحل العضوية التي يمرّ بها الإنسان ، فهي تنشأ في مهد من الضعف ، ثم تشب وتقوى ، ثم تشيخ فتهرم ، ثم تموت ، متأثرة بسلطان القانون ذاته الذي تخضع له حياة الإنسان ، أي بقطع النظر عن العوامل المختلفة التي يفترض أن تمدّ من أجلها أو تعجل بالقضاء عليها .

ومعنى هذا أن على الباحثين أن يريحوا أنفسهم ولا يتعبوا أفكارهم بالتفتيش عن العلل والأسباب ، داخلية كانت أم خارجية ، فإن الشجرة التي استنفدت طاقتها في البقاء ومقاومة الطبيعة ، لا بدّ أن تتكون في داخلها عوامل موتها [1] .

غير أن القرآن أوضح لأولي الألباب أن الأمر ليس كذلك ، وإنما المسألة تكمن في أن ثمة شرطاً أساسياً ، وعلى جانب كبير من الأهمية والصعوبة معاً ، إن أفلحت أمة ما في تطبيقه على وجهه الصحيح ، بصدد انهماكها في إنشاء الحضارة الإنسانية ، فيستحق لها من ذلك الشرط ما يدفع بحضارتها في طريق سليم إلى الذروة ، ثم إنه سيتحقق لها من ذلك الشرط نفسه ما يحصّن حضارتها ويحميها من كل آفة وضعف ، وستبقى تلك الحضارة باسقة شابّة قوية ، ما بقي ذلك الشرط في مركز العناية والتنفيذ على وجهه السليم .

هذا الشرط ، يتمثل في أن يمارس الناس دنياهم وأسباب عيشهم وتقدمهم ، بدافع وظيفي ، وبروح استشعار المسؤولية ، لا بدافع التعليق أو التعشق النفسي .

---

(١) من أبرز من يتبنى هذا الرأي الفيلسوف الألماني « أوزوالد شبنجلر » .

ولن يتحقق ذلك ، بطبيعة الحال ، إلا إذا اجتثت الدنيا ومغرياتها من قلوبهم ، وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها ، وهيهات أن يتم ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق عز وجل ، ثم الإصغاء ، بدافع من هذا اليقين ، إلى بيانه عن حقيقة هذا الكون وقيمته وفائدته ومدى أهميته .

فإذا استيقن الناس ذلك ، فإن أفئدتهم لن تقع في أسر الدنيا ومغرياتها ، وستتحرر نفوسهم ولا ريب ، من بلاء التعلق بها والتعشق لها ، فإذا كلفهم الله بعد ذلك باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم ، فسيقبلون على أشياء الدنيا وأجهزتها ومظاهرها وسائر ما فيها من أسباب المتعة ، إقبال من قد كُلِّف بأمر ، فهو ينشط في سبيل تحقيقه وإنجازه .

صحيح أن من شأن النفس البشرية ، إذا ذاقت ملذاتها ومارست نعيمها ، أن تهفو إليها ثم تتعلق بها ، وأن يتبدد في ضرام ذلك التعلق النفسي تدبير الفكر وقرار العقل ، ولكنّ هذا يمكن أن يتم بالنسبة لمن لم يفهموا بعدُ حقيقةَ الدنيا وقيمة المكونات التي فيها ، أو فهموها ، ولكن بميزان عقلي مجرد ، أي بعيداً عن سلطان العواطف والوجدان .

غير أن الأسلوب القرآني لا يقف بالنسبة إلى هذه المسألة الخطيرة ، عند إقناع العقول ، بل يضيف إلى ذلك توجيه النفوس بسائق من الرغبة والرهبة إلى ما هو خير وأبقى ، فهو يظل يؤكد بأساليب تربوية شتى أن الدنيا مهما كانت تفور بمظاهر المتعة وأسباب اللذة ، فإن على كل عاقل أن يدرك بأنها حلُم يوشك أن ينقضي ، وبأنّ نعيمها سيتحول عما قريب إلى غصص تأخذ بالنفس وبالحلق ، وأن على كل ذي رغبة وهوى أن لا ينسى بأنه إن ترفع اليوم فوق هذه المظاهر الفانية ، واستخدمها أداة لتحقيق المصلحة الإنسانية العامة ، فإنّ له في الغد القريب ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، في حياة خالدة لا انقضاء لها ، ولا تحوّل عنها .

وقد علمت أن مستند اليقين بهذه الإخبارات القرآنية ، التي تخاطب كلاً من العقل والنفس ، هو اليقين بوجود الله عز وجل ، وبأن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فإذا رُبّي الإنسان على هذه التبصرة القرآنية التي تستهدف ، كما قلنا ، كلاً من العقل والوجدان ، فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ألواناً ، ومهما لاح له بريقها ، على البعد أو القرب ، فسيبقى كل من عواطفه وأفكاره ويقينه العقلي ، مشدوداً ومتجهاً إلى النعيم الأكبر الذي لا ريب عنده في قدومه . وستظلّ نفسه مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنتُم توعَدونَ ... ﴾ [الأنبياء : ١٠٣/٢١] ، ﴿ فَهوَ في عيشَةٍ رَّاضيَةٍ في جَنَّةٍ عاليَةٍ ، قُطُوفُهَا دانِيَةٌ ، كُلوا واشْرَبوا هَنيئاً بِما أَسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢١/٦٩ ـ ٢٤] .

ومن ثم فإنه يمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها ، المستخدم لها ، طبق نظام معين ، وضمن حدود مرسومة ، ومن أجل الوصول إلى هدف عالٍ مقدس ، على حين لن تستطيع الدنيا أن تسكره فتستخدمه وتستعبده ثم تطوح به .

وعند هذه النقطة الهامة الحرجة ، يختبئ مفتاح الحضارة ... وعندما يكمن السر الذي يمدّها بأسباب الاستقرار والبقاء ، فلا تقع تحت طائلة القانون الوهمي الذي تخيله شبنجلر وأشياعه ، وهو بعينه المفتاح الذي عثر عليه ـ من خلال بيان الله عز وجل ـ الرعيل الأول من هذه الأمة ، بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني ، فافتتحوا به مغاليق الدنيا في أقرب زمن وبأيسر جهد .

ألا ، فلتعلم أن كل ما على الأرض من خير وأن كل ما في باطنها من ذخر ، أداة وأيُّ أداة لعمارة هذه الأرض على أفضل وجه ، ولنسج برد السعادة الإنسانية المثلى فوق جنباتها وذراها ، ولكنّ الشرط الوحيد لذلك ، أن لا يمارس الإنسان هذه الأدوات

ولا يعالجها إلاَّ بعد أن تفرغ نفسه من غوائل التعلق بها ، فيقبل عليها عندئذ إقبال من امتلأ شبعاً ، إلى طعام يبيعه أو يتاجر به .

ألا ترى إلى الرجل يضع بين يديه أطباقاً من الحلوى يبيعها ليستغني بأثمانها ، إن الشرط الأساسي لنجاحه في مسعاه ، ألاَّ تهفو نفسه إلى تلك الأطباق ، ولا يسيل لعابه عليها وألاَّ يتشهاها كلما نظر إليها . فأما إذا كانت نفسه تندلق عليها ، ولا تبصر عنها ، فهو يتذوق منها بين كل حين وآخر ، ويتخذ منها إفطاره إذا أصبح ، وغداءه إذا أضحى ، وعشاءه إذا أمسى ، فإنه لن يعود من مسعاه إلا بالخيبة والخسران ، وسيضيع كلاً من الجهد والمال معاً .

غير أن أكثر الشعوب والأمم ، لما كانت غافلة عن هذه الحقيقة ، تائهة عن معرفة هذه الدنيا على وجهها ، بعيدة عن حديث القرآن وبيانه ، أقبلت على الدنيا بنفوس متعشقة لها ، قبل أن تتأملها بعقول مدبرة .

فكان من جراء ذلك أن سعت تلك الأمم إلى بناء مدنياتها وحضاراتها ، بدافع النهم النفسي أكثر من التدبير الفكري ، ولا بد أن ينشأ عن مثل هذا السعي في العادة ، السباقُ بين أصحاب الدوافع المتشابهة ، ولا بدّ أن ينشأ عن السباق الصراع ، وأن ينشأ عن الصراع الخصومات والحروب ، ذلك لأن النفس إذا تعلقت بالشيء تعلق نهم ورعونة ، خيل إليها أنها لن تنال حظها منه ، إلا إذا انفردت به ، مهما كانت حاجة النفس إليه قليلة ، ومهما كان بحدّ ذاته كافياً وافياً لحاجات الناس جميعاً .

لذا فإنك لا تكاد تجد أمة سعت إلى بناء حضارتها من هذا الطريق ، إلا وشغلت يداً واحدة لها بإنشاء الحضارة وأسبابها ، بينما انصرفت بيدها الأخرى إلى إيقاد نيران العداوات والحروب بينها وبين الآخرين .

وقد عبر المتنبي عن هذه الحقيقة بأصدق بيتين له ، هما :

كلمـــا أنبت الـزمـــان قنـــاة ركب المرء في القنـاة سنـانـــا
ومراد النفـــوس أهـــون من أن نتعـــادى فيـــه وأن نتفـــانى

وقد تنجح هذه الأمم أخيراً في إنشاء مدنياتها وحضاراتها ، من خلال سباقها اللاهث ، وعراكها الدامي ، ولكن لا بدّ أن تحمل تلك الحضارات في أعماقها ـ منذ اللحظة الأولى ـ بذور تدميرها وعوامل فنائها ، وذلك طبقاً للمراحل التالية التي لا بدّ أن تمر بها سائر المدنيات والحضارات الجانحة ، وإليك صورة سريعة عن تتابع هذه المراحل :

تتفتح أمام تلك الأمم أبواب الثروات والغنى ، فتتقلب من ذلك في دنيا اللذائذ والأهواء ثم ما هو إلا أن تستمرئها وتركن إليها ، وتطوف برؤوسها من ذلك سكرة النعيم ، وتتقاذفها عندئذ حياة الدعة والترف ، وتستحوذ عليها دواعي الركون إلى ما نسجته حولها من مظاهر الشهوات ، فينسيها ذلك واجب النهوض بأعبائها الجسام ،